جُمعَة حَمّاد

رحلة الضياع

ذكريات لاجىء

956.402
ح م ا ر
27270

بسم الله الرحمن الرحيم

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
دبي
ص.ب ٥٥١٥٦

جُمعة حمّاد

٩٥٦,٤

رحلة الضياع

ذكريات لاجىء

١٩٨٦
مطابع المؤسسة الصحفية الأردنية

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
دبي
رقم التسجيل 27277
المصدر ..... شراء
ر ن: 72583

مديرية المكتبات العامة
رقم الايداع ١٢٧/٣/١٩٨٦

مقدمـــة :

هذه الكلمات ليست تسجيلاً لفصل من فصول القضية ، وليست تقريراً عن أحوال الناس في بقعة بعينها من بقاع فلسطين في مرحلة من مراحل الغزو الصهيوني ، لأنها اعتمدت أدوات الفنان أكثر من اعتمادها على قواعد التاريخ ، فهي أقرب ما تكون إلى الاختلاجات ، أو «اللقطات» ، تصيّدناها من الذاكرة في حينها قبل أن يأتي عليها تيار الأحداث ، وتسفو عليها رياح النسيان ، علّها تكون من الشواهد على حجم العدوان ، وأسلوب المعتدين في التعامل مع الأرض والإنسان .

وإذا كانت هذه الكلمات قد وجد معظمها طريقه إلى النشر قبل عقدين من السنين ، فقد كانت النية أن نتابع عرض هذه «اللقطات» من الأحداث التي عايشناها ، قبل الرحيل وبعده ، على مثل هذا النسق ، ولكن المتابعة ـ مع الأسف ـ لم تتم ، والوعد الذي قطع لم ينجز ، وقد نقول : إن في احتواء الصحافة وكثرة مشاغلها ، مسوغات لهذا التقصير ، لأننا كنا مع العمل الصحفي ، نطفو على مثل فوهة قدرٍ يغلي من الأحداث والأخبار المتلاحمة مما لا يترك للمرء فسحة للانفراد بالنفس والعودة لتملِّي الصور البعيدة ، واسترجاع الذكريات الماضية ، فتغمّ الرؤية شيئاً فشيئاً ، ويتسرب الخدر إلى الأعصاب المنهكة . . . قد نقول هذا وقد نقول غيره من المسوغات والأعذار ، ولكن الحقيقة ، هي أنه إلى جانب كل هذا هنالك مؤثرات أخرى ، ظلت تتراكم وتحطُّ بأثقالها على النفس ، تُشتت الفكر ، وتحاصر الخيال ، وتطارد الأمل ، قد تكون لوناً من ألوان اليأس ، والإحباط ، أو العجز ، وقد تكون خليطاً منها

جميعاً . . . والحصيلة أن هذه الكلمات ظلت حبيسة الأدراج ، حتى نبهني بعض الأصدقاء بإلحاح ، إلى ضرورة جمعها وإخراجها ، قبل أن تلحق بالذكريات التي لم تسجَّل بعد . !

ونحن لا نشك في أن عند كل لاجيء جملة من الذكريات الخاصة يمكن أن تشكل واحدة من الروايات المثيرة المفجعة ، التي يقف لها شعر الرأس ، وتهتز لها أعماق الإنسان ، غير أن المسألة هي في قدرة كل واحد من هؤلاء على تسجيل هذه الذكريات وتوثيقها ، وإذا كنت بهذا الكلام أحث نفسي أولا ، فإني أتوجه إلى جميع القادرين للقيام بهذا الواجب والنهوض بهذه المسؤولية ، قبل أن تذهب الحقائق مع أصحابها إلى القبر ، فلا يبقى للأجيال القادمة إلا ركام الإعلام المضلل ، والدعايات المضادة . فهذا الصراع الذي أرادته الصهيونية مع أمتنا ، واتخذت له أسبابه ووسائله من زمن بعيد ، مقدَّر له أن يطول رغم تسارعه ، ومن حق هذا الجيل والأجيال من بعده ، أن تعرف صورة مما حدث ، لأن هذه المعرفة ستظل من عوامل الحسم في هذا الصراع الخطير .

جمعة حماد

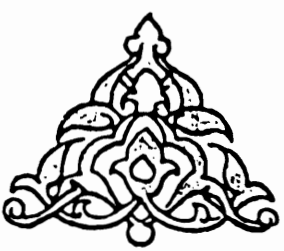

«إلى ولدي»

سأكتب إليك ـ يا ولدي ـ في موضوع حاولت أن أتجنبه طويلاً، حاولت أن أدفِنَه في أعماق صدري، كتلةً من شظايا الألم والمآسي، لأني كنت مفعمَ النفس بالثقة والأمل. أني سأعود وأغسل عاري بيدي، وأمسح وصمةَ فراري بدمي، ولأثبت لك قبلَ الناس جميعاً أنني لم أُفرِّطْ في الأمانة، ولم أخرج من أرض أجدادك إلا من الثغرة التي فتحها الله للمؤمنين من عباده المجاهدين... (إلاَّ مُتَحَرِّفاً لقتال أو متحيِّزاً إلى فئة..) ولكن الأيام تطاولت، وفؤادي يقفز، وأعصابي تهتز مع كُلِّ عاصفة، وأنا أتحرك على غير هدى مع ضربات الرعد تحتَ كل سحابة، فإذا بالعواصفِ فراغ، والرعود كواذب، وأمواجُ السيول سراب تتقطَّعُ دونه الأنفاس، وإذا بي أكتشف غفلتي، ساعة بعد ساعة، كلما اتسع قوسُ الانحراف، وكلما مات رجع صدى ندائي بين الأنصار من قومي.. وها أنا قد كَبِرْتُ، شمسُ حياتي اصفرَّت وهي في فجرها، وفي درج مكتبي زجاجةُ دواء، وعند القلم أنبوبة، وفي جيوبي حبوبٌ بيضاء ورمادية، وفي المعدة قروح أزمنت، وفي القلب خفقاتٌ غير معتادة، ورسل القبر أخشى أن تسد علي الطريق، طريق الأمل، طريق العودةِ.. وأنا

أحمل ذكرياتي معي ، هكذا ، كما يَحمل المحارب النصلَ في جسمه لا يقدر على انتزاعه والخلاصِ منه . . ذكرياتي لا بد أن انقلها إليك ، ونصلُ القاتل لا بد أن أضعه بين يديك ، خشية أن تذهب هذه الذكريات معي إلى القبر ، ويدفن نصل الآلام قبل أن يراه ورثتي . . .

فدعني أروي لك ما يثقل صدري من ذكريات ، دعني أُفضي لك بوصيتي ، بهذا الحديث الذي يهز جمودي من أقطاره ، لأني إنما أعود به إلى أكفاني أفُضُّهَا ، ولدموعي أحصيها . . أرتَدُّ على آثاري قصصاً ، لأعد قطراتِ الدماء التي سقطت مني على طول الطريق ، من وطني ذاك إلى ملجأي هذا . . .

وأنا . . . من أنا؟

أنت لا تعرفني يا بنيَّ العزيز على حقيقتي ولك عذرُك ، ولي عذري ، فنحن لم نجتمعْ إلا أياماً كالصُّدَفِ الجميلة في العمرِ الطويل ، وأنت لم تر أباك إلا لاجئاً طريداً ، ولم تذق في صدره طعمَ الأبوة وحنانَها ، وحين كنت تجلس إلى جانبه ، ويطوقك بذراعه ، كان يسرح عنك بعيداً ، بعيداً في اللانهاية ، ويحملِقُ في الفراغ ، كان حديثه اليك أنينا حين يهدأ أو ترتخي أعصابه ، وكان حديثه إليك صراخاً حين تعكر مزاجَه أقلُّ العثرات . . .

أنا صورة . . أنا تمثال أبيك الذي كان ، أنا نسخة عن جسمه وهيكله أنا «توت عنخ أمون» النكبة ، مت مع أصحابها مرات ، وتزاحمت على الجمل المكسور الخناجر ، كم مزقوا الأجساد الباردة بسكاكينهم ، وداسوها بأقدامهم ، ثم دفنوها في الأرض سماداً لزرعهم ، وصهروها في المصانع شحماً لتزييت آلاتهم ، أو قذفوا بها

بعيداً إلى حيث لا يشمون رائحة النتن ، أشلاء ، ومزعاً تختلج بدون أرادة ، وكتلاً تسير بلا هدف ولا غاية!

* * *

من زمان ، انطلقت مِن المستر دالس وزير الخارجية الأمريكية فلتةُ لسان ، جملة عابرة من خطاب طويل ، لكنَها ما زالت تُثير في نفسي الرعب ، وتهزُّ كيان كل التماثيل اللاجئة . . . المنصوبة في معسكراتها ، لقد قال الرجل : إن جيلي الذي نشأ في فلسطين ، ورَضَع من لِبانها ، وجرت الدماءُ في عروقه من خيراتها ، هذا الجيلُ وحده ، هو الذي يقف عقبة في سبيل السلم ، وفي وجه الصلح على مأساة فلسطين . .

هذه الكلمة التي قالها «دالس» وبأساليب مختلفة ـ قالها غيرُه من الغزاة والمعتدين ، هي اليومُ الأملُ الوحيد ، هي بالنسبة لهم «ضريبة النوم» في تقاليد الثأر البدوية ، فجل همهم أن يطوحوا بنا مِن سنة إلى سنة ويقذفوا بنا من ازمة إلى مشكلة إلى قضية ، ومن لجنة إلى وسيط ، إلى قرار ، إلى أن نلتقي بحفاري القبور قبل أن نلتقي بهم ، ليواجهوا بعدها جيلاً لا يفرق بين تراب وتراب ، ولا بينَ وطن ووطن ، جيلاً يُمكن أن يطرب على نغمات الإنسانية ويغفو على موسيقى السلام . !

فهل تصدق فيكم يا بني ـ نبوءةُ «دالس» ويتحقق على أيديكم أملُ الأعداء . . . ؟

هل ترث يا ولدي وطنَ أبيك وثأرَه ، أم ترث تشريده وعاره . . ؟ . . هل تُحِسُّ بسعادة في إسعادي ، ورضى في أرضائي ، أم أن حماسك ، واهتمامك وهتافك للعودة ، إنما هو للمجاملة وجبر

الخاطر، لجيلٍ جنى على نفسه، وتحمل وزر أعماله.. فأنت وجيلُك منه براء لا عليكم ولا لكم..؟.

في بلادنا كانوا يفرحون بمولد الذَّكَرِ يُهللون ويذبحون الذبائح، كانوا يرشون جسمه و «يحمرون» جَبهته بالدماء. لأن لِلذَّكَرِ ميزةً عندهم على الأنثى، لأن عليه واجباً يتحمله دون النساء، لأنه وحدَه، الذي تُلقى عليه تبعة الأخذ بالثأر!

وللثأر في باديتنا ـ كما قد لا تعرف ـ صولةٌ وجولة، وكنت بدويا «متفقها» يُحارب هذه العادة، ويدعو إلى المساواة بين الذكر والأنثى، ومع ذلك فقد هللت ـ على غير عادتي ـ وكَبَّرْتُ عندما جاءتني بشرى ولادتك، لأنك يا بني ولدت، والجثث ملقاة، والدماء تسيل، والأرض فر عنها أصحابُها، والأعراض قصرت عن حفظها حماتها.. وأنا أحوجُ الناس طراً إلى طلاب الثأر من هؤلاء الذين لم يقفوا دون غنيمتهم فحسب، بل ما زالوا يَجِدُّون في آثارنا ليكتموا آخر نفس يتردد في صدورنا، لينامو من بعد في طمأنينة واستقرار.

وقبل أن أمضي في حديثي هذا معك، أحب أن أؤكد لك حقيقةً لا بد من أن تتأكد، إذا كنت حريصاً على إسعاد أبيك، وهي أن هذه السعادة لن تتسرب إلى نفسي في الحياة وبعد الممات، وأن روحي لن تَقَرَّ في مهجعها الأخير إذا لم يؤخذ بثأري، إذا لم يفك أسر الأرض التي أطبق عليها هيلمان الذلة والضعف في غفلةٍ من الأعزة الأقوياء.

تعـال معـي !!

أنت تذكر ـ يا بني ـ تلك الرحلةَ القصيرة ـ ولعلها الوحيدةُ التي ترافقنا فيها ، أنت تذكرها جيداً ، ولكني أحب أن نستعيد ذكرياتِها ، شركة بيننا وبين أولئك المصابين ، الذين يُعالجون أنفسهم بجرح يسيل على جرح ، وبأنين يُغطي على حسرة ، وبنار تنصهر في جحيم ، وبالمآسي تتنفس في جو الكوارث . . .

لقد كانت الطريقُ غريبة عليك ، تتلمس كتفي مستفسراً عند كل بناء ضخم ، أو حقل ممرع مررنا به ، ولكني أنا الذي هز كتفك عندما أقبلنا على «العروب» فوراءَ ذلك المرتفع غربيَّ الطريق لأبيك ذكرياتٌ ، وله عندما تجاوزنا بلد أبينا إبراهيمَ الخليل ذكرياتٌ أخرى ، عند الصخرات الشهباء الضخمة شرقيَّ الطريق . . ولست أنا وحدي صاحبَ الذكريات على هذه الطريق في هذا . . الموقع أو ذاك ، فكلُّ ركاب هذه الشاحنة الذين يُحملقون في اللانهاية ، ويدورون في فلك أنفسهم ، لا بد أن هذه المنحنيات والصخور تُذكرهم بقريبٍ قضى ، أو بدم أريق ، أو برصاصات أُطلقت منهم ، أو من عساكرِ الانتداب ، وهم يخوضون المعركة التي بدأت من زمان . . .

ها نحن قد وصلنا ، وها هنا لا بد لسيارتنا أن تقف ، لأن خطَّ الهدنة على مرمى العصا ، فهذه هي «الظاهرية» وهؤلاء هم بعض أحبابي ، وشركائي في النكبة ، كُلُّ واحد منهم من قبيلة ، وأنا من قبيلة أخرى ، وكم كان بين القبائل من دعاوى الجاهلية ، ولكنك تستطيع الآن أن تحكم على مدى ما فعلت بنا الأيام ، كيف وحَّدت

بيننا المصيبةُ في المظهر والمخبر، صهرت قلوبنا حقداً، وخلعت عنا أثواب العنجهية والكبر، لتلبس بعدَها ثياب المسكنة والعجز، تتشقق مع عناقنا أنفاساً تلهث، وتتمزق دموعاً تتوارى حياء، وتتجمد مكابرة وصبراً. . . !

وتحركنا إلى المضافة المتواضعة أو الحجرة التي سموها مضافة، وتحلَّق الناسُ مِن حولنا، يُبالغون في المجاملة والود، مجاملةً تصاحبها الدهشة، ووداً يخالطه السرورُ البالغ، والحنان الحزين كذلك الذي يرى صديقه فجأة بعد أن أيقن من هلاكه وفراقه إلى الأبد، وبعد أن نفض من قلبه تراب ذكراه. . .

وأنا أعيد عليك أسماء بعض الحاضرين، هذا هو عمك «سليمان»، شيخ لعشيرة، وهذا هو عمك «عطية» شيخ من قبيلة، وذلك هو «أحمد» شيخ آخر من عشيرة أخرى، فيقاطعني أحدهم في سخرية، ويقول لك: «لا تراع» كلام أبيك، لقد انتهت المشيخة يا ابنَ أخي، لقد خلعنا أثوابَها، وفقدنا مقوماتها، عندما خرجنا من بلادنا، نحن الآن «مخاتير» بطاقات، نعرف كيف نكيلُ الزيت و «الكاكوز»، ونحاول الحفاظَ على حصتنا من الدقيق، ولا والله حتى هذا الواجب لا نستطيع القيامَ به على الشكل المطلوب. الكل بتذكرته يا ولدي، وكلنا سواسية ـ الشيخ والراعي ـ أمام جبروت البطاقة!

ويَعُدُّ القومُ القهوةَ ظلالاً من بقايا العادة، يأخذون أنفسهم بها قسراً، في جو غير الجو، ومحيطٍ غير المحيط، «البكارج» لا يلهبها جمر الهشيم من حطبَ الأودية، و «اَلنجر»[1] لا يخالط موسيقاه ثُغاء

---

١) النجر: هو الوعاء الذي يدق فيه البن.

الحملان ، وصهيل الخيل ، وحُداء الرعاة والحصادين لتؤلف معاً سيمفونية الفطرة للسعادة والحرية ، ولكنها دقاتٌ تتجاوب وحدَها في هذا الكشك المعتم ، كلطم الخدود ، أو ضربات الفأس في قبر صخري .

وتدور القهوة ، ومع رشفاتها نتسلل قليلاً قليلاً ، بعيداً عن واقعنا ، كالحشاشين في «الغرزة» ، يعود الخيال بنا إلى الوراء ، وإذا بنا في عالم آخر ، نستعرض فيه مشاكلَ القبائل وتقسيم الأراضي ، ومواطن الخصب ، «ووسم» الثريا والجوزاء ، والماعز التي تلد في العام مرتين ، وكرم فلان وبخل علان ، والربيع في هذا الجانب من الوطن المهجور أو ذاك ، وتختلطُ الأحاديث . كل صدر قِدْرٌ يغلي ، يفتش صاحبه عن متنفسٍ لذكرياته ، وكأنه يغتنم فرصة وجود من يستمع له ، ليشهد أنه ما زال أميناً على ماضيه ، ويحترق شوقاً للرجوع إليه .

وفي ذروة الحماس لعرض صور الماضي البعيد ، يقف الشيخ سلمان ليقول لنا : كأني بك تريد أن «تزور» فيرد عليه الجميع «زوره» يا فـلان ، وخذوا «الولد» معكم . . !

ونمضي - يا بني - نصعد السفح ، نتعثر وينزلق حذاؤك من فوق الصخور وأنت تحاول اللحاق بنا ، لا تعرف لهذه الزيارة كُنْهاً ، ولا تدري لهذا العناء سبباً ، حتى إذا استوينا على القِمة ، وقفنا دقائق في صمت وخشوع ، كأنما نصلي في محراب ، صمتٍ قطعه الشيخ مشيراً نحو الغرب : «هذه السهول القريبة هي لنا نحن التياها وتلك هي الجمامة» وأشار إلى حقل ومزارع خضراء ، «وهناك أبي سمارة» وأشار إلى تل أبعد إلى الغرب ، «وهل تعرف ما يقول

شاعرنا ينذركم ويوعدكم!

(يوم كحلة(*) سد في أبي سمارة(*) اما «شنق»(*) بيلوح حدها لمشاوير)

ذلك ـ يا ابن أخي ـ أيام أن كانت قبيلتانا تحترب على هذه الأرض، ويقتل أجدادنا أنفسهم. للحفاظ عليها من بعضهم بعضاً، وها نحن قد سلمناها غنيمة باردة إلى «الخواجا»!..

أي ابنَ أخي! إذا قدَّر الله لنا العودة، فلن يكون تياها، ولا ترابين، سنختلطُ ونجعل الأرض بيننا شركة، تمضون أنتم أيام الربيع عندنا، ونقضي عندكم أيام الصيف.. لأن أرضكم تنتج «بطيخاً» ولا هذه الصخور التي تراها من حولك وتجود أرضنا بدون حساب في الربيع ومن حقول القمح والشعير... وحين يتم ذلك، سنذكر عهد البطاقات من هذه الزاوية بالخير، التي جعلت منا كلاً منجمعا، وسلكتنا قبيلة واحدة... ويمضي الرجل يُحدثك من دوني، وينشر ذراعه الأخرى، إلى الغرب... «هناك حيث يختلط السحاب بالأفق، ذلك هو ساحلنا الأزلي، وتلك الكتل الخضراء، هي قرى، وبساتين وحقول كلها من دون غزة، يرتع فيها العدو، وأصحابها يعيشون في «زنازن» المعسكرات.. ثم ينحرف قليلاً إلى الجنوب الغربي.. «وهناك ترى سياجاً أزرق من وراء السراب، تلك هي جبال سيناء. وهناك.. من دونها ترى جبلاً صغيراً كالجمل البارك، ذلك هو «القرن» خذ خطاً عمودياً من هنا إلى ذلك الجبل، تلاحظ تلالاً كثيرة عند منتصف المسافة... بين تلك التلال تتمركز العاصمة، هناك تئن بئرُ السبع تحت وطأة الأعداء، وإلى الجنوب تستطيع أن ترى ذلك السد الهائل في شبه القوس، تلك هي سلسلة جبال النقب، التي تُمسك بعضها بعضاً إلى أن تصافح جبال سيناء... ومن دونها أرض العزازمة، السهول والتلال والأودية،

ثم مزارع القديرات . . .» ويسكت لحظة ، ثم يلتفت إلى جبل القرن مرة أخرى ويتابع حديثه . . . «في حضن القرن من الجنوب وادي الأبيض يخترق التلال إلى السهول الغربية ومن بعده العوجا حفير ، ملتقى الأودية الحادة من الشرق والجنوب ، وعلى عتباته من الشرق تغفو قرية «الخلصة» ثم خذ خطاً مستقيماً إلى الشمال حتى ترد البحر ، هناك المزارع والبيارات والحقول في الأرض البكر ، تلك هي أرض قبيلتك ، وتلك هي «ديرة» أبيك . . .» ويتلفت إليك من قريب شأن الدليل الذي قام بخدمةِ السائح ، وأدَّى واجبه على خير وجه . . ليسألك «هل نمت يوماً على الرمل؟ ، هل جرَّبت ليونة السوافي الناعمة؟ ، ثم يدير وجهه إليَّ مازحا «إن أباك من سكان (العجرة) لعله الآن لا يحلم الا بغفوة على كثيب ، أو بأكل البطيخ المخزون في الندى تحت الشجر ، أو أن يشوي أرنباً إلى جانب قرص الملة» . . ثم يدير وجهه مرة أخرى إلى الغرب ، ويرفع ذراعيه كأنما ليعب أكبر كمية من النسيم القادم من أرضه فيبدو التآكل في عباءته ، والبلى يحيط أطرافها ، ويشرق وجهه وهو يستحثني : تكلم يا شيخ . . . !»

فوضعت يدي - بدوري - على كتفك ، أؤمن على كلام صديقي في شبه الهمس ، نعم يا ولدي تلك هي «ديرة» أبيك ، وهناك عند السوادِ البعيد غربي تل الفارعة ، ولدت أنت ، وذلك هو التراب الذي ولد عليه أبوك وجدك ، ونَعِمَ بخيراته أجدادُك الأولون ، وأعطانا وأعطاهم مدد الحياة طوال القرون . . .

وتلك هي أرضك ، يعز علي يا ولدي أن أورثك إياها وهي في أيدي المعتدين . . ولولا عودُك الطري ، لسرنا في ظلال الليل ، لتشرق علينا الشمس هناك . . في الأودية ، بين الكثبان ، في ظلال

الشجر ، أو عند الينابيع . . لتتعرف عليها من قريب لأدلك على حدود مزارعي . . !

لماذا تنظر إليَّ هكذا . . . لا تُرَعْ ، ولا تخف رصاصَ الأعداء ، أنا أعرف الطرق ، أعرف مخابىء الأودية وبلادي تعرفني ، آثار أقدامي هناك ، أشجارُها تحنو علي ، أوديتها تسترني ، تخفيني عن العيون ، ثعالبها ، يرابيعها ، طيورها لا تخونني ، تألفني ، تصرف الأنظارَ الخبيثة عني . . . تقفز فرحاً لو أحست بوجودي . . .

أنت في أمان لو وصلت إلى أرضك في ثوب الظلام ، ولكن عودك الطري لا يساعدني ، يكفيك هذه المرة السلامُ عليها إيماءة من بعيد ويكفيني . . ففي هذا المثلث الظاهرة حدوده بين عينك ، في هذه الرقعة الواسعة من وطننا المقدس ، بين غزة والعوجا ، وبئر السبع ، في هذه المنطقة التي تراها ، عشت بياضَ عمري وفيها جرى معظم ما سأسرد عليك مِن ذكريات يجللها السواد .

مصرع بطل

حين أخذت السيّارة تلتقط أنفاسها في الطريق إلى الجنوب، بعد كفاحها الشاق في المنحنيات الوعرة على سفح وادي الموجب، بدأت أشم رائحة القِدم قوية نفاذة، وبين حين وآخر تطالعنا الأعمدة المنحوتة البيضاء، كأنها عظام أمجاد ماتت هنا، فهذا هو قصر الربّة، يحدث عن بني أمية، وهناك تمثال الإيمان والصبر والشجاعة في مؤتة، وخمسة ملايين يقول المؤرخون: إنهم كانوا يعيشون في هذه البقاع، ليت عمري هذا النسيم من أرواحهم، وهذا التراب هل هو من دمائهم.. وكيف كنسهم الزمان فأصبحت ديارهم قفراً أو كالقفر...؟

درب لا يسير عليه أحد إلا ويدرك أن للتاريخ لغة حية يتكلمها الحجر والتراب والهواء، والنبتة الذابلة والشجرة الجائعة، والقمة الأنوف والوادي السحيق، وفجأة تواجهك صفحة القلعة، قلعة الكرك؛ لتقرأ عليها العدوان الصليبي حين صعد إلى هذه القمة الشماء، ليقبض على زمام المسالك، ويمسك بشرايين الأمة، ثم تقرأ إلى جانب هذا إصرار القوافل، قوافل الشهداء على رد العدوان.

وحين تمهلت بي السيّارة في الشارع الرئيسي في عاصمة الجنوب، كنت ما زلت أعيش في التاريخ أقرأ كتابه، وأتحدث لغته، وهذا سالم، وذلك عودة، وهذاك حمدان، وجوه أعرفها لكأنني أقرأ فيها تاريخ سالم وعودة وحمدان، الذين كانوا أصدقائي من العزازمة والسعيديين، لقد خيّل إليّ أنهم تأقلموا مع هذه المنطقة الأثرية،

فأصبحوا آثاراً مثلها لأناس مضوا سعداء في بلادهم، ولكنها آثار حية تصرخ، أرواح تصرخ إلى الأمن، وأمعاء تصرخ إلى الطعام، وأبدان تصرخ إلى الراحة، وأجساد تتحلب إلى الكساء. وعيون هي المسجل.. هي «تلفزيون» هذه المأساة..

* * *

كنا في الشهور الأولى من عام ١٩٥٧ حين قذف اليهود بمجموعات من عشائر بئر السبع، فساقهم الصقيع وأمل المعونة إلى الكرك، فخرجت للقائهم أفتش بينهم عن نفسي، وأشم معهم رائحة أرضي.

وكان السوق غاصّاً بالنازحين، فهرولت مسرعاً إلى مقر صديقي، وابن «ديرتي» ممثل اللاجئين هناك..

كان الرجل غارقاً بين الأوراق يسجّل ويحصي ويرتب القوائم، فسلم عمله إلى شاب من ذويه ليرحب بي، ويحدثني عن كفاحه لمساعدة «ربعه»، وعن القوائم التي يسجلها الآن تمهيداً لتوزيع المعونات على أصحابها، والتفت فجأة إلى الشاب الذي استلم مكانه، ليقول له «عندما تصل إلى أسماء السعيديين نَبِّهْني»..!

قلت: لقد كنت أظن أن العزازمة هم الذين جاءوا وحدهم إلى هذه المنطقة.

قال: إن الذين وصلوا من بئر السبع أغلبهم من العزازمة، ولكن السعيديين هم في أشد حالات البؤس، ولم تقدم لهم معونات على الإطلاق!

قلت وأنا أحس برجفة تجتاح جسمي كله : رحم الله سليمان ابن خميس . . !

فابتسم صديقي ابتسامة حزينة ، وهو يقلب كفّيه يأساً : «يرحمه الله» ثم التفت إلى مجموعة من الناس قريباً منا ، وأشار إلى عجوز . . هذه زوجته!

كانت المرأة تسند ظهرها إلى باب المتجر وقد تكورت كأنما تعانق ركبتيها ، وكانت كلها شهباء . كأنها تمرغت في رماد : ثوبها وغطاؤها ، وذراعها الذي بدأ حين التفتت إليَّ وهي تقول : «يا أفندي ، يطول عمرك إحنا ناس محتاجين . .»!!

وضحك صديقي ممثل اللاجئين وهو يقول لها : لا تتوهمي يا خالة هذا فلان!

وبحلقت المرأة في وجهي ، ونظرت إليها وغمامة سوداء سرعان ما حالت بيني وبينها وشريط الذكريات في رأسي يدور ، ليضعها في صورة أخرى مختلفة جدّاً . . . !

* * *

كان البيت صغيراً . . خيمة من الخيش في لون الحصى ، لا تكاد العين تلمحه بين أشجار الطلح الباسقة ، التي ترسل عليه الظلال من كل ناحية ، تقيه أشعة الشمس المحرقة في وادي عربة من فوق قمم الكرك وبصيرة ، وكان نسيم من الشوق يحرك جوانبه ، فيكشف ما تحته من ناس ومتاع .

عجوز هدّها الكبر ، تستند إلى بقايا كيس للدقيق ، وقدر في

الركن المقابل، وجدي يحاول التفلت من رباطه، وبندقية مزخرفة معلقة في شعبة قادم البيت.

هذا كل ما في البيت الذي خرجت صاحبته لاستقبالنا، وهي تنبه أمها للقادمين (رجال يا أماه)!

كانت المرأة شامخة الرأس، ثابتة الخطوة، قد أخفت زينة الجبين واليدين بقماش أسود علامة الحداد، صافحتها وأشرت إلى حمل السيارة: عشرة أكياس من الدقيق والشعير.

قالت: لمن هذا؟

قلت: لكم.

قالت: ما نحن بحاجة!

قلت: إنها ليست عطاء من عندنا، لقد أرسلتها «جبهة شباب بئر السبع»، طعاماً لضيوف سليمان، وعلفاً لجمله، وسليمان لم يمت!

قالت: إي والله. سليمان لم يمت. لقد دفناه في ملابسه، وقبرناه دون أن نغسله، لأنه ذهب شهيداً، ولكننا لسنا في حاجة إلى القمح والشعير والمال، عندنا الغنم وعندنا الإبل. لا تخافوا علينا!

قلت: ولكننا لا نستطيع أن نرجع بها، إنها هدية إلى سليمان، وضيوف سليمان على حالهم، وجمله.. وسكت!

ورق صوت المرأة الأنوف، وتلفتت إلى البيت الخيش الذي يتحرك مع النسيم وهي تقول: ولكن الجمل سقط راكبه.. وبندقيته.. (وأشارت إلى البندقية المعلقة) من يحملها؟.

وحين واجهتني مرة ثانية ، كان الدمع يفور من عينيها ، ولكني لا أدري كيف قطعت دمعها بعد لحظات ، وهي تقسم علينا أن نذبح غداءنا ، وأن نتصرف كأننا مع سليمان . . . ونحن نتخلص منها لزيارة القبر ، والصلاة على الشهيد!

* * *

كان ذلك قبل أشهر قليلة من رحيل الإنجليز عن فلسطين ، ودخول الجيوش العربية . ولم أكن على معرفة وثيقة بسليمان بن خميّس . لم أكن أعرف عنه إلا أنه كان أحد أفراد قوة البوليس الهجانة وقد استقال من عمله ، وتفرغ لصيد الغزلان ، وتربية الإبل والأغنام ، وكان من ذلك الطراز الذي يسميه البدو «صانعاً» ، أو ما يعرف بيننا بالفنّان ، كان يصنع شداد جمله بيده ، وكان يزيّن بندقيته بأطواق نحاسية صفراء من صنع يده أيضاً ، وكان من المشاهير الذين يطلق الواحد منهم النار على الغزال النافر فيصيبه في النحر . كأنما يذبحه على مهل وهو بين يديه .

هذا كل ما كنت أعرفه عن سليمان بن خميس ، من عشيرة سويلم بن رمان ، من قبيلة السعيديين ، التي تعيش في وادي عربة على الحدود بين فلسطين والأردن ، ولم يكن يخطر لي على بال أن ذلك البدوي الربعة ، الذي يتمنطق بالخنجر ، ويضع على رأسه العقال المقصب ، ترتخي تحته جدائل شعره ، أن يكون ذلك الرجل مصدر تلك الأعمال التي هزَّت اليهود هزّاً ، والتي ملأت أنباؤها صدورنا فخراً!

* * *

في تلك الأيام التاريخية ، كانت الصحافة العربية في فلسطين تنقل أنباء القتال بحماس أكثر أضعافاً من حماسنا . وكانت صحفنا تحرص كل الحرص على أن تنقل عن الصحف العبرية اعترافاتها بما يلحق بالقوم من خسائر ، وكانت صحف الأعداء شحيحة في اعترافاتها ، بل إن المعارك التي تذكر بتوسع عندنا لم تكن لتحرك تلك الصحف للاعتراف بالقليل منها : ولكنها مع ذلك ، اعترفت بأن هناك عصابات عربية شديدة المراس على شاطىء البحر الميت ، وكانت تذكر أسماء القتلى من اليهود الذين سقطوا برصاص تلك العصابات «الشريرة» عند العين البيضاء ، أو ما يسميه اليهود بـ «سدوم» ، وتكرر حديث الصحف اليهودية عن عصابات «وادي عربة» بشكل أصبح حديث الناس في بئر السبع . .

وكنا مجموعة من شباب القبائل ، اجتمعنا على تنظيم الكفاح في المنطقة ، وقد أدهشتنا تلك الأنباء على الرغم من أن الناس كانوا يتهامسون بأن ذلك من عمل بعض رجالنا . وكان لا بد من أن نعرف هذه العصابة الفذة ، وأن نتصل برجالها ، إذ كيف نزعم أننا نمثل شباب البادية ، ونحن لا نعرف شيئاً عن هؤلاء الرجال الذين فرضوا على العدو أن يتحدث عن أعمالهم فرضاً . . !

وجاء رسولنا بالمفاجأة . . المفاجأة التي لم يكن يتوقعها أحد كانت العصابات (الشريرة) في عرف الصحف الإسرائيلية ، وكانت الأعمال البطولية التي تقوم بها تلك العصابات : في أعمدة الصحف العربية ، كانت تلك الأعمال وتلك العصابات تتلخص في شخص واحد هو : سليمان بن خميس!

* * *

لقد سمع الرجل بطغيان اليهود وعدوانهم على العرب : فلبى نداء الواجب ، وجند نفسه بنفسه في سبيل الله . وكان سلاحه تلك البندقية التي تحدثنا عنها قبل حين . . وهي على الرغم من زخرفتها وصيانتها ، من طراز فرنسي قديم جداً : تحشى بطلقة واحدة فقط . . وكانت كل الذخيرة الموجودة بين يديه : وربما الموجودة في المنطقة كلها : عشر طلقات . كان سليمان بن خميس لا يطلقها إلا في لحم من الغزلان أو الناس!

وكان سليمان يودع زوجته وأمها على أساس أنه سيرود مراعي مناسبة ، وكانت الزوجة تراقبه حتى يختفي على ظهر جمله بين أشجار الطلح ، ثم تعود لتتلهى بالغزل أو النسيج ، لا يؤنس وحدتها إلا أمها العجوز .

وكان سليمان يتجه إلى الغرب ، كأنه يريد نقب «الصفاه» ، ثم يتجه إلى الشمال ، وكأنه يريد نقب «الزّويرة» ، وكان بين الحين والحين يتحسس ذخيرته ، الطلقات العشر وكان يمر بأسراب الغزلان فلا يلتفت نحوها حتى إذا وصل قريباً من العين البيضاء في مكان لا يرى فيه ، نزل عن الجمل ، وقيده ، وتناول بندقيته ، ومضى ، لا تسمع لنعله المطاط صوتاً . . . !

كان نبات الحلفا ، وبقايا الاثل والطرفاء ، والغرقد تتعانق قريباً من مسيل العين ، وكان المعروف أن اليهود يأتون من نقطة على طرف البحر الميت ليفتشوا على العين أو لينقلوا الماء العذب ، وكان سليمان بن خميس يعرف من زمان هذا المكان أيام أن كان في قوة الهجانة يحرس جماعة من اليهود تمركزوا في هذه المنطقة .

وسليمان يتسلل بين الأشجار والأشواك، وطائر يفر من هنا، ووحش يتحرك هناك، حتى إذا بدت له العين في القاع، تمركز وأرخى كوعه على الأرض السبخة. وقد يطول بسليمان الانتظار، فيتناول من كيس جنبه كسرة من خبز الملّة، وقد يمتص قليلاً من الماء في قربة صغيرة لا تفارقه، وقد يسرع الصيد إلى مصرعه، فيبدأ سليمان العمل مبكراً، ويعود مبكراً كذلك.

وكان سليمان لا يطلق النار إلا إذا كان الصيد مجزئاً، فهو لا يطلق على الهدف أكثر من طلقتين ليتأكد من نهايته، وكانت تلك البندقية وذخيرتها لا تكذبه وكيف تخونه وهو يصنعها بيده؟

لقد كان سليمان يكره القتل، قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق! ولكن هؤلاء الأعداء هم الذين بدأوا، وهم الذين يتسللون إلى مثل هذا المكان النائي للإحاطة بالعرب. وكان اليهود لحسن حظ سليمان لا يخرجون إلا جماعة إلى العين البيضاء خوفاً من الأشجار والوديان والقمم القريبة، ليشجع بعضهم بعضاً وكان سليمان لا يطلق الطلقة الأولى إلا على الأبعد أو الأقرب إلى الاختفاء، فإذا سقط أسقط في أيدي الباقين، فمنهم من يزحف على بطنه، ومنهم من يقف دون حركة، ومنهم من يجري على غير هدى، وصوت الطلقة يصعد في الأعالي ويَلُفُّ مَع الأودية، بحيث لا يمكن تحديد مصدره.. فإذا فرغ سليمان من ذخيرته، احتفظ بطلقة واحدة، وتحرك في تُؤدة، ومضى إلى جمله ليعود إلى البيت، ليحشو الفارغ بملح البارود المخلوط بلحاء الشجر، ثم يصنع مفجراً جديداً، ورصاصات جديدة يسكبها على طريقته الخاصة ليتزود للرحلة القادمة إلى العين البيضاء!

وكثرت رحلات سليمان للتفتيش عن المراعي ، أو للتفتيش على رعيان الغنم والإبل ، وكان لا بد للزوجة أن تعرف وهي ترى زوجها مشغولاً بالطلقات وبتنظيف البندقية دون أن يكون معه الصيد المعتاد ، فلم يتغير شيء مما بينهما ، ولم تنكر عليه عمله ، ولكن قلبها صار يهتز رعباً كلما تأخر في الرجوع ، وكم مرة طلبت منه الصحبة ، فيصدها ، ويحاول جهده أن يغرس في صدرها الشجاعة والاطمئنان .

ولم يبد على سليمان حين قابله رسولنا اهتمام غير عادي بجماعتنا أو بالمديح الذي كاله له ، ولم يطلب منا أكثر من الذخيرة في رسالة من عشرين كلمة لا أكثر. وذهبنا نفتش عن الذخيرة في مظانها ومضت أيام ، أسبوع ، أسبوعان ، وجاءنا من سيناء من يحمل عشرين طلقة من تلك الذخيرة الفرنسية القديمة ، وفي تلك اللحظات التي كنا نحتفل فيها في مقر جبهة الشباب في بئر السبع بالعثور على هذا الكنز ، ونستعد للقاء سليمان بن خميس ، كان شيء آخر يحدث هناك!

* * *

لقد استطاع اليهود أخيراً أن يكتشفوا العصابات (الشريرة) التي أجهزت على عدد من نزلاء (سدوم) حتى فكرت بقيتهم في النزوح نهائياً ، وتمكنوا من معرفة عدد العصابة .

وأقبل سليمان كعادته ، وتسمر اليهود في أماكنهم . وأحس الرجل بشيء غير عادي ، وتلكأ في مشيته ، وهو يتطلع إلى آثار أقدام جديدة . . . وأدار سليمان ظهره لئلا يسقط في الفخ ، وفجأة انطلق الرصاص دون حساب!

وأخذ سليمان يقفز يميناً وشمالاً، يتفادى سيل الرصاص، وظل يركض، وهو يعرف أنه قد أصيب، لئلا يمكّن الأعداء من جثته، حتى وصل إلى الجمل وكأن ذلك البعير الأصيل عرف ما حل بصاحبه فتوجه إلى بيته يسابق الريح، وحين أقبل على نقطة بوليس (عين حصب)، قريباً من جدول الماء، تمهّل الجمل، وسقطت البندقية، وسقط وراءها سليمان بن خميس جثة هامدة.

وهرع بوليس الهجانة يستطلعون الأمر، وظل الجمل يدور على رسنه حول جثة صاحبه، وأطلقت (سلمية) من بعيد صرخة واحدة.. وحركت كل أنثى على العين قناعها الأسود أسفاً على سليمان!!

ونقل الجنود جثة زميلهم وصديقهم تحت ظلال السدرة الكبيرة غربي العين، وحفروا قبره.. وأطلقوا النار من بنادقهم تحية للبطل وهم يهيلون عليه التراب، ونحن نقبل بسيارتنا من بعيد، تتلوى فوق الطريق الحجري البالغ الوعورة.

* * *

لا يمكن أن يكون قد خطر على بال واحد منا ـ أنا وصاحباي ـ وجنود البوليس الهجانة، ونحن نتجمع للصلاة قريبا من المقبرة، وظلال السدرة تغطينا من أشعة الشمس، وسلمية زوجته ترقبنا من بعيد.. لا يمكن أن يكون قد خطر على بال واحد منا أن سليمان الذي فرَّ بجثته من اليهود سيتبعه اليهود إلى القبر، وأنهم سيقذفون بأرملته إلى ساحات التشرد، وأن هذه السدرة التاريخية التي شهدت فتوح العرب ستلقى غزو اليهود، وأن هذه النقطة النائية من مراكز

فلسطين ستكون بلدة كبيرة يسرح الأعداء فيها ويمرحون ويرقصون تشع من فوقهم ومن حولهم الأنوار الكهربائية يتحدون العرب أجمعين!

* * *

وانجابت الغمامة السوداء عن عيني ، كانت المرأة في مكانها من دكان (علي السيد) في الكرك ، وكان الناس يعلو صياحهم ، يتلاحون عند تسجيل الأسماء . فقلت لها ، وقد خيل إليَّ أني أحدثها وحدها : هل تذكرينني يا (سلمية)؟ هل تذكرين تلك السيارة . . وسدرة الحصب . . وقبر سليمان!!

وفتحت المرأة عينيها ، وكأنها تلقاني من جديد ، وانكمشت أطرافها ، واختفى قدماها الشهباوان تحت أهداب ثوبها الأشهب ، وتحركت أخاديد وجهها . وهي تقول : «آه . . هه!» . . ومرَّة ثانية وثالثة تكرر «آه . . . هه!» حتى خلتُ أن مساً من الجنون قد أصابها!

وعلا ضجيج الناس ، وماج بعضهم في بعض ، وهم يفتحون طريقاً لسيارة وكالة الغوث ، ويستقبلون رجلاً أنيقاً نزل في خفة منها ، ليصادق على قوائم الأسماء ، ويوافق على توزيع الإغاثة ، وقفزت من مكاني أفتش عن نبأ (صحفي) جديد ، وقد تحولت «أه . . هه!» في رأسي إلى موسيقى أنين دائم .

الأفاعـــي

أنت لا تذكُر يا بني صورة عمي «سعد»، ولكنك قد تذكر طرفاً من سيرته، وتعرفُ أنه كان أشدَّنا لليهودِ كُرّهاً، وعليهم بأساً، لقد كان الحديث يأتي عنه بمناسبة ودون مناسبة، ولا بد أنك قد لاحظت مراراً أن الألم والحسرة يدفعانني دائماً إلى تغيير مجرى الحديث..

كان بقامته الطويلة وشاربه، وهو يمتطي صَهوة جواده، نسخةً من تلك الصورة التي يتخيَّلُها الرسامون للفرسان الأوَّلين وكان فوق هذا أيسرَ أعمامي حالاً، كانت أرضه أخصب الأرض، وكانت غنمه تتكاثر بلا حساب، كان كما يقول جماعتنا: صاحب (بخت)، أو من أُولئك الذين يقول الناس عنهم: إن التراب يتحول في أيديهم تِبْراً.

لست أدري كيف توثَّقَتْ بيني وبينه روابط، فوق تلك التي تكون بين العم وابن أخيه، وكل ما أذكره، أنه يخاطبني كصديق قريب في أول يوم تربَّعت فيه أمام المدرِّس، لكي أحفظَ «أبجد هوز»، وكنت التلميذ الوحيد عند أستاذي الأول، فلم تكن له مشغلة غيري، وكانت له عصا يُصِرُّ والدي على أنها من الجنة، وكان يَحرِص دائماً أن أذُوقها عند أول خطأ.

في تلك اللحظات التي لا تُنسى، بَرَز عمي على المسرح، برز ليحمِيَني من شدة والدي وطغيان مدرّسي، وقد احمرَّت حَدَقتاه:

«علِّمِ الولد بالحسنى لا تضرِبْه. والله لو ضربته لأفعلنَّ بك. . .»!

وخفَّ العذاب عني، وأحسستُ بحب عمي يَغمُر قلبي الصغير، وأحببت دروسي مع اللين والعطف، وأخذ يتعهَّدني بالهدايا، وبما يسمونها اليوم «الفُسَح»، وكانت «فسحتي» أن يُردِفَني وراءه على ظهر فرسه، ثم يمرُّ على حدود المزارع، فإذا قفز ثعلب قال لي «تمكّن». . . وأطلق العَنان للفرس، وحذف ذراعه من ورائي يضُمّني إلى ظهره خوفاً علي، حتى يزوغ الثعلب بين الأشجار، ثم نعود إلى مضارب العرب وقدِ امتلأت نشوة وقوة!

وكبَرت وكَبِر في نفسي تقدير عمي، وتوطَّدت عَلاقاتي به، كنت على ما كان بيننا من فروق في السن كاتمَ أسراره، والوحيدَ الذي يفتح صُندوق أوراقه، ويجمع ما يمكن أن يُسمى «تجوُّزاً» حساباته.

كان يحدّثني ويستمع إلي، ولعل أول شيء سمعته عن الخطر اليهودي كان من أحاديثه وروايته، وكان حديثاً يختَلِط بالحديث عن الغِيلان والأرواح ومناجاة (بنات نعش)، كان حديثاً مبهماً تجتمع السخرية فيه بالخوف منه. وكان أول من ردَّد أمامي قصيدة ذلك الشاعر البدوي الذي أرسلها إلى ابن سعود في أوج حركته (الإخوانية) والتي كان الشاعر يَخلِط فيها بين اليهود وعمال الإنجليز، ومطلعها الذي ما زلت أحفظه:

يا راكباً من عندنا من فوق «غفران»[1]
يمِّك على عبدالعزيز بن سعودِ

---

(١) غفران: اسم جمل أصيل.

قل له إخوانك ضاعوا بين جرفس[1] وجبران[2]
إسلام ضاعوا مع حاكم يهودي

وهو الذي حدثني كذلك عن تنبؤات الخواجا نسيم.

كان يهودياً مرحاً كثير المزاح من أولئك الذين عاصر العربَ أجدادُه منذ أقدم العصور، ولعلَّه من مجندي الصهيونية الأوائل الذين كان عليهم أن يمهدوا الطريق للقادمين من ملَّتهم بعد حين!! كان يُخرِجُ كلامه من أنفه، وكان البعض يتناقلون فكاهاته مقلدين صوته، فيضحك لها أشد الناس وقاراً!

وكان يأتي من يافا أو من غزة لست أدري، في أوائل موسم الصيف من كل عام، إبّان الحرب الكونية الأولى، ليشتري بذور البِطِّيخ وثمار الحنظل، التي تكثر في بلادنا، وكان ينتظر الحنظل حتى يَجفَّ ليسهُل حمله على ظهور الجمال، فتكون لديه فسحة من الوقت للمناقشة والمزاح والتنقل بين البدو الذين لم يبخلوا عليه بالصداقة والمساعدة والحماية ليقوم بتجارته على أوسع نطاق، في وقت كان الأمن فيه مفقوداً في أواخر أيام الدولة العثمانية في تلك المنطقة النائية من فلسطين!

لقد أدرك «سعد» الخواجا نسيم، ولعلَّه قد سَخِر منه وتهكَّم عليه، ولكنه ظلَّ على حداثة سنه، يحتفظ بشيء من الرِّيبة والشك من تصرفات ذلك اليهودي، وكان فيما بعد يروي كلاماً من كلامه، تعليقاً على نتائج الحرب المنتظرة «إذا انتصر الإنجليز، فحَضِّروا

---

(١) جرفس: كان محافظاً لسيناء.
(٢) جبران: أحد موظفي الإنجليز بمنطقة بئر السبع.

(براذغ) لظهوركم لنركبَكم ، أما إذا انتصر الألمان فسوف نُحضِّر نحن تلك البراذع ، لتركبونا»!

كان ذلك الكلام في حينه ذروة المزاح الذي أضحك به (نسيم) المجتمع البسيط النظيف الذي أفسح له في أرضه وبين أفراده ، إذ ما معنى (البراذع) ، وما معنى الخصومة ، وأي قزم ضعيف يستحق الشفقة ، يتطاول على عملاق ، لم يسيءْ إليه ، ولا يفكر في عداوته ، بل يقدم له كل العون ، وكل الصداقة والحب ، لكي يَعيش في كَنَفِه وتحت ظله . ثم ما دخل الألمان ، وما دخل الإنجليز في تلك البراذع ، ودورهم بين العملاق الكبير والقزم المسكين . !

كانت مزحة ثقيلة ، بل كانت مزحة طريفة جداً ، أجاب عنها البدو في حينها ، جرياً على تأكيد السخرية « . . . والله ما نستبعد يا هالك! » .

غير أن هذه المزحة الثقيلة قدّر لها أن تكون شيئاً يشبه ناقوس الخطر ، ونبوءة تثير الرعب في نفس عمي ، ويكررها علي المرة بعد المرة ، عندما أعود إلى المضارب في إجازاتي المدرسية ، حين كانت تأتي أخبار طلائع المؤامرة لغزو اليهود لأرض إخواننا في الشمال . ويقول : أخشى أن يكون ذلك اليهودي قد صدق في كلامه . .

وكانت منطقتنا ـ أعني بئر السبع ـ خالية من اليهود تماماً ، ومن غزوهم وتحركاتهم ، فكان الناس يتلقون أخبارهم عند إخواننا بالشمال دون أن يعرفوا ما يجب أن يفعلوه ، أو يستطلعوا ما يخبئه الغيب لهم ، حتى كان ذلك اليوم!

* * *

كانت الأرض قد آتت أكلها في ربيع عام ١٩٣٥ ، وكانت أنعام العشيرة تخب في الأعشاب خبّاً ، فما ترتفع الشمس قيد ذراع ، حتى تكون قد شبعت ، وانبطحت على العشب الطري تستمتع بالأشعة الدافئة المرطبة بالندى ، المعطرة بأنفاس الزهر والرياحين البرية ، فجأة تلمع في الأفق الصامت ، من الشرق ، حركة آلة ، ويشاهدها الرعاة سوداء تسير من بعيد «كالجُعل» ، لعلها أول سيارة تشق ذلك السهل البكر الواسع ، من وطننا غربي تل الفارعة ، ثم تختفي لتبدأ موجة من الإشاعات عن السماسرة ، وعن (كشفة) منهم ومن اليهود على أرض تم شراؤها بأسعار خيالية في تلك الجهات وعن صفقات سرية لبيع الأراضي تتم في بئر السبع وغزة ويافا .

كان الناس بين مكذب ومصدق ، وبين ذاهل ومستنكر ، وبين من يضمر في نفسه الاستفادة من تلك الأموال على حساب الأرض الخراب . . . كان ذلك ما عندهم ، أما ما كان عند سعد ، فهو شيء آخر!

لقد جاءني صباح ثاني يوم لمرور تلك الآلة الغريبة ، مضطرباً مبهور الأنفاس ، ليحدثني عن حلم رآه في تلك الليلة!

قال : «لقد رأيتني أتجول في سهلنا هذا بين المزارع ، فإذا بآثار حيّات كبيرة غريبة يختلط بعضها ببعض ، وتملأ «مزرعي» من أقصاه إلى أقصاه ، فأخذت أمشي قصصاً على تلك الآثار ، فرأيت واحدة وأخرى وثالثة . كل منها سوداء الرأس ، قد طوت نفسها في مخزن غلالنا ، ثم أخذت تطلق صفيراً تجمعت معه أفاع أخرى ، توجهت إلى «أثلتنا» تلك ، فتسلقتها والأفاعي تنساب ورائي ، حتى أحاطت بجذع الأثلة ، فتحت عيني وأنفاسي توشك أن تنقطع . . .

«يا بني، فتش في كتبك عن تفسير لهذا الحلم»!!

كنت في حدود العاشرة إبّان الدراسة الابتدائية، وكان مجمع (العرب) يتناقلون أني أوشك أن أصبح من قراء «السبعة ألسن»، في تلك المنزلة التي لا يصح أن أجهل فيها شيئاً من أمور الدين أو الدنيا، من تفسير للحاضر أو هتك لأستار الغيب، وقد كنت عند حسن ظن أهلي بي، أقرأ كثيراً، واحتفظ بسيرة بني هلال إلى جانب المصحف، وبكتب «البروج» وفتح البخت إلى جانب كتب الطب والحكمة، إلى آخر هذه المجموعة من الكتب الصفراء التي أراها قد اختفت من المكتبات اليوم!

ولكن على الرغم من قدرتي الموهومة على تفسير الأحلام، لم تكن لدي الجرأة على السخرية من الرجل الذي أحبه وأحترمه، حتى ولو سخرت من الناس جميعاً، وكان الأمر في نظري لا يستاهل كل هذا الاهتمام والخوف، وأي واحد منا معرّض لمثل هذه الأحلام إذا امتلأت بطنه بطعام غير عادي. فقلت في حياء وبإيجاز.. «والله ما أعرف...!

فتراءت لي علامات خيبة الأمل في ملامحه، حتى إني ندمت إذ لم أهون عليه بكلمات تزيل من نفسه أثر أضغاث هذا الحلم، ولكنه وقبل أن أتراجع فيما قلت، أطلقها أنّة طويلة، قال لي بعدها، وعيونه ساهمة معلقة بالمجهول، كأنما يكشف بأشعتها أستار الغيب: والله ما أظن إلا أنها اليهود، وأن طلائع «أفاعيهم» هي تلك السيارة التي مرّت أمس!!

وأخذ الموضوع من سلوكه مأخذ الجد، فوقف يحذِّر الناس، ويغلظ عليهم عند الخوض في الحديث عن بيع الأراضي لليهود،

وتطورت الأحوال في يسر وهدوء، إلى أن جاء الإضراب الشامل الذي ضمَّ المدينة والقرية والبادية، ليكشف آخر ستار عن وجه كل مخدوع أو جاهل بالمصير الأسود الذي يترصده، وانقطعت «رِجل» اليهود وسماسرتهم من هذه المنطقة الكبيرة... بئر السبع من تلك الأيام من عام ١٩٣٦م إلى أن انتصر الحلفاء على «الوحش النازي»، وأصبح حرف (٧) تحية النصر، يرسمه الإنجليز ومن يختلط بهم برفع السبابة والوسطى، فقد كثرت السيارات التي تجري في سهولنا بعد أن استقر الأمر لـ (حماة الديمقراطية)، وكثر الحديث عن الهجرة والمهاجرين والأرض التي يجب أن تهيأ لاستيعابهم!

وفي صبيحة يوم ارتفع برج إلى الشرق من أرضنا، وامتدت الأسلاك الشائكة على آثار السيارة التي مرّت قبل أعوام، وكان سعد مضطرباً، يروح ويغدو مبهور الأنفاس، كأنما قام من «حلم الأفاعي» لتوه، ولولا المصفحات التي كانت تحمي اليهود وعمالهم، ما أظنه قد تركهم، دون أن يجرّب حظه معهم، وكذلك فقد ارتفع برج مماثل وأكشاك على مرتفع قريباً من حدود أرضنا من الشمال...!

وحاول سكان الأكشاك التقرب إلى أهل المنطقة، بنفس أسلوب الخواجة «نسيم»، ولكن الناس على بساطتهم كانوا قد أدركوا هذه الحقيقة البسيطة، وهي أن بيع الأرض، هو بيع للوطن، وأن ليس لهم بعده إلا الجلاء.. فانحصر الشر - فيما يرى عمي - في هذين البرجين، يتوسط كل واحد منهما خمسمئة من الدونمات، تحيط بها الأسلاك الشائكة.

وكانت لسعد أرض واسعة تقع بين البرجين والأكشاك، التي

اصطُلِح فيما بعد على تسميتها «بالمستعمرات» ، وذات يوم بدأ سكان البرج الشرقي يمدون أنابيب الماء إلى سكان البرج الشمالي ، وقدموا ما رضيت به نفوس أصحاب الأراضي التي مرّت الأنابيب بأرضهم ، وجاء وسطاؤهم إلى سعد يعرضون عليه مئة بعد أخرى ، ورفض العرض في غلظة وحزم ، ووقف العمال قريباً من حدود أرضه ، ولكنه فوجىء ذات يوم بالعمّال يواصلون مدّ الأنابيب . . . !

وكنت في زيارة عرضية «لعربنا» فخرج سعد على فرسه نحو العمال كالريح العاصف ، وهبّ والدي والحاضرون وراءه ، درءاً لسوء العاقبة .

كان الوقت ضحى ، وكان سياج أبيض من الغبار يرتفع مع حوافر الفرس ، ورأيت الفارس في السهل الواسع يختلط بالعمال الذين فرّوا على غير هدى ، وكان السيف مشرعاً في يده يلمح من بعيد كالبرق عندما يلامس جنب أحد العمال ، حتى خيّل إليّ أنه قطّعهم جميعاً ، إلى أن علمت أنه كان يضربهم بصفحة السيف لا بشفرته . . . كانت المفاتيح وأدوات العمل ملقاة هنا وهناك ، وكان العمال يتصارخون بعيداً ، وهو يجمع المفاتيح والأدوات ليضعها في خرج فرسه ، ويحاول أن يهدم الأنابيب التي مدت في أرضه .

لقد جاء رجال الأمن بشكوى من اليهود ، بعد ساعات قليلة ليكشفوا على موقع الحادثة ، ويحققوا في أسبابها ، وقضت المحكمة بعد ذلك أن لا حق لليهود في تمديد أنابيبهم من الأرض قسراً . !

وكان انتصاراً ملأ نفس عمي بالسعادة والرضى حتى هدأ وتنفس الصعداء ، وظن أن موجة الشر قد انحسرت إلى الأبد . . ولم يخطر بباله أن الكارثة كانت قد فتحت جوفها مبكراً ، ولأمر ما ترك

اليهود أنابيبهم لم يحولوها عن الخط المرسوم . . ! وتطورت الأحوال فيما بعد تطوراً سريعاً مذهلاً ، وجاء المتطوعون ، ودخلت الجيوش في زفة عرس ملأت أسماع الدنيا ، لتنسحب في مناحة ما يزال أنينها يصك أسماع الدنيا كذلك!

وأرسل سعد صهره وأحد أبناء عمومتي ليستطلع خبر الإخوان المتطوعين وليستوحيهم الرأي ، وليعرف منهم ما يمكن أن يقدم لهم من مساعدة، وكان هؤلاء قد عسكروا إلى الشمال قرب مقام «نوران[1]» .

كان الحارس قد رأى الخيّال قادماً مع طريق بري يصل إلى «المقام» فانطلق مسرعاً يصرخ ليوقف الرجل القادم ، وليحذره من الخطر . . وقبل أن يصل إليه صوته دوى انفجار ، وارتفعت إلى السماء غمامة ، وتناثر على الأرض فتات من بقايا فرس ، وتدحرج رأس لابن عمي حماد عيد ، إلى جانب قطع من عظام السرج .

لقد أصبحت الانفجارات التي تدمر كل شيء مألوفة عندنا بعد الكارثة ، ولكنها في تلك اللحظة التي «تبخر» فيها رسول «العرب» إلى المتطوعين كانت شيئاً فظيعاً وغريباً ، يفسره بعضهم بأنه غضب من الله ، أو هو من طلائع الساعة ، ولقد حزن عمي على صهره ، وعلى فرسه ذات الصيت في تلك المنطقة ، ولفَّ الشؤم نفسه من تصور الحادث ، ولكن الحوادث التي تلت ، والتي ما يزال الناس يرددونها ، غطت على تلك الحادثة ولم تمهله لكي يسترسل في أحزانه ، أو يراجع نفسه في كيفية وقوعها ، أو طوالع الشؤم التي تتكشف من

(١) مقام عليه قبة لاحد الأولياء ، على عشرة أميال جنوب شرق خانيونس ، وحوله مقبرة للقبيلة .

ورائها . .

فلقد غطت الجيوش المنسحبة السهل والوعر ، وتسرب اليأس مع انسحابها إلى قلوب الناس ، وآمنوا أن مالا قبل لهم به قد أحاط بهم ، إذا كانت هذه الجيوش بدباباتها وطائراتها تفر أمامه هكذا على غير هدى ولا نظام . . . وانحاز عربنا من المزارع إلى الغرب بعيداً عن طريق الجيوش ، وهم في شبه ذهول لا يدرون ما يفعلون ، وقد تركوا مخازنهم مملوءة بالحبوب «والتبن» وكنت بعيداً مع فلول المحاربين في الشرق قرب «عسلوج» ، وقد عمت الهزيمة لا يدري أهلي أكنت مع الأحياء أو في عداد الأموات ، إلى أن التقيت بهم في المناطق الوعرة ، وهم يتحركون غرباً إلى ملجأ أمين . .

وافتقدت عمي . . وقال أبي : إن هذا «المجنون» أبى أن يفارق المخازن ، وها هم أولاده الصغار وأهله يقلبون أكفهم لا يدرون ما حل به ، ولا ينامون فزعاً وقلقاً . . ولم نلبث إلا قليلاً ، حتى جاءنا طارق من الشرق ، وما أكثر الطوارق في تلك الأيام ، الذين يحدثون الناس فيبالغون فيما رأوا أو سمعوا وحدثنا الضيف الطارق عن معركة بين سيارة من سيارات الجيب وركابها ، وبين رجل في مزارعنا . . قال : «لقد حدث ذلك عصراً ، وبدأت دفقات (البرن) وبندقية تجاوبها . . ولقد رأيت ركاب السيارة يزحفون وسمعتهم يتصايحون ، ولكني لا أدري ما الذي حدث للرجل فقد دخل الليل»!

وحامت أسراب الطائرات نجوماً حمراء تتحرك في سواد الليل ، وانفجرت معركة «رفح» بركاناً لا تسكت قنابله ، وتحرك الظعن مرة أخرى إلى الغرب ، وتحركنا خمسة ، أنا وأبي ، واثنان من الأقارب نفتش عن سعد ، ومعنا الضيف صاحب قصة المعركة!

وأخفينا رواحلنا، واختفينا نحن بين الأشجار قريباً من المخازن ننتظر النور الذي نستطيع به أن نرى آثار الأقدام، وسرعان ما اهتدينا إلى آثار أقدامه في الأرض الرخوة، يتوكأ على بندقيته، ويسير في اتجاه مسكن الأهل فانحدرنا مع الآثار وراء مرتفع بعيداً عن نظارات العدو، التي لا بد وأن تغلّي السهول المجاورة من البرجين القريبين. وفجأة رأينا عمي متمدداً بجانب شجرة من «الرتم»، فوقف وفي يده بندقيته كأنما ليحتاط من هجوم للأعداء، فلما عرفنا، تراخت مفاصله، وتهالك على الأرض، وسقطت البندقية بجانبه دون أن يلقي إليها بالاً، أو يحرص على نظافتها من الرمل..

قال - وقيل أن يرد التحية: اسقوني! فأسرعنا إليه بالماء، فشرب وارتاح نفسه، ثم أخذ يتقيأ ذلك الماء، قال لنا: إن طعمه كطعم حنظل «الخواجه نسيم»!

كان الإعياء قد حوله شخصاً آخر غير سعد الذي أعرفه، لم تكن عنده رغبة للحديث، ولم يسأل عن أمر من أمور أهله، وحتى لم يبد عليه أنه قد سر بلقائنا، لقد استحثه صاحب الخبر أن يروي ما حدث عصر أمس، والرجل يقول له: رأيت كذا.. ورأيتهم يصرخون لقد أصبتهم كلهم، فيرد عليه في إيجاز: «لا أدري إذا كنت قد أصبت أحداً، القاتل في السماء، يا ولدي، كانت رصاصات قليلة معي، فلم يكن بد أن لا أطلق واحدة إلا وأنا أظن أنها في «لحم» ولكن «إيش ودك في طول الكلام» انهزمت وفرّيت، واستولوا هم على المخازن وعلى الأرض.. كلها أصبحت من حظ «فريش»[1] ثم التفت إلي:

(١) مختار مشهور لإحدى المستعمرات اليهودية القريبة.

«قرايتك ما هي نافعة، ألا تشوف بعينك تفسير حلم الأفاعي . . . !» .

قلت : يا عم ليت الجميع فعلوا ما فعلته أنت . . . ! ، قال : «سبحان الله . . . وما الذي فعلته يا رجل، أكثر من الهزيمة، والفرار؟ ثم ابتسم ساخراً يسألني «إيش تسمي هروبنا إحنا وجيوشنا عندك في كتب (الفلفسة) يعني بذلك (الفلسفة)!» ثم تابع حديثه إلي : «الرجل هو الذي ينتصر أو يموت في أرضه، والمسلم عندك في القرآن ما يعطي ظهره للكافر، وأنا هربت منهم بجرح لا يقتل نملة!» .

ولأول مرة نعرف أنه مصاب، فلم نكن قد رأينا على ثوبه أو مع آثار أقدامه آثار دماء، فكشفت على الجرح الذي «لا يقتل نملة» في كتفه، لم يكن هناك نزيف ظاهر، وبدا منه العصب أصفر بين الكتف والرقبة مع دماء متجمدة، ولم يكن معنا إلا الشاي نطهره به . . ومضينا في طريقنا، ولكن حرارة الرجل قد ارتفعت، واشتدت وطأة المرض عليه، وتوسل إلينا أن نريحه في ذرا «صيرة» من الحطب أقبلنا عليها لواحد من أبناء العشيرة . . .

ونزعنا من شجر «الثمام» ضمات نهيئها فراشاً للمريض العزيز، وغطيناه بخرج كبير مع احدنا، ولقد كبر علي أن لا يكون بين أيدينا من الأدوية إلا العشب والشاي، فأخذت أشجعه بحماس لكي يقاوم المرض، على أمل أن نصل به إلى مركز من مراكز الإسعاف، ولكن الرجل كان كأنما فرغ من الحياة ونفض يديه منها، فارتفعت حرارته أكثر فأكثر، واشتد هذيانه وهو يستحثني أن أقرأ القرآن، ويوصي والدي بأن نكون رجالاً في مواجهة المصاعب، وبين

الحين والحين يلوح بيده كأنما يدفع شيئاً وهو يردد : الأفاعي . . الأفاعي . . . !

لقد دخل الليل ، وأصحابنا يتحوفون «الصيرة» يجمعون الحطب من أطرافها يلقون به على الموقد ، لكي لا تنطفىء ـ في عرفهم ـ نار المريض ، وعمي يهذي ويكبر ، ويلعن الكفار والجيوش الهاربة ، وأحياناً ينادي أسماء لأصحابه سبقوه إلى الحياة الآخرة . . فلما شق نور الفجر أستار الليل من الشرق ، سكنت حركة عمي وهدأ كأنه في سبات عميق . . . !

كان والدي أعرف بالموت وأقدر على تمييز مظاهره ، فرفع عقيرته بالشهادة ، ثم وضع إبريقاً من الفخار مملوءاً بالماء في النار ، وعقدت المصيبة لساني فلم أقدر أن أتكلم أو أقرأ ، ولكني وبقية أصحابنا كنا نتصرف كأن الموت قد أصبح جليسنا وصاحبنا فلم نكن نخشاه ، بل لعلنا كنا أقرب أن نطمئن إليه . . وناداني أبي وهو يخلع ثياب شقيقه ليهيىء جثمانه للغسل ، فأخذت أصب الماء من الإبريق قطرة قطرة وهو يمر بيده على جسم أخيه ، كأنما يتودد إليه ، أو يغسله بحنانه وعاطفته .

كان العصب المصاب على حاله ، وكان الشيب قد خالط لحية عمي وصدره ، وكأني أراه لأول مرة ، وكانت أعضاؤه لينة هينة ، فلففناه بسهولة في اثوابه ، ثم في حرام خشن ، ثم حزمناه على جانب الرحل ، وقبل أن أركب «لأعادله» على الجمل ، تناولت بندقيته ، وضغطت بدون روية على الزناد ، فانطلقت رصاصة تدوي في الربع الخالي ، كأنما لتحيي الفقيد ، ولما أفرغتها وجدتها الأخيرة في خزنة بندقية سعد . .

ومضت القافلة الصغيرة ـ وأنا في مقدمتها ـ نحو مقبرة الأجداد مقبرة «أولاد علي» في سيناء . . . وإني وأنا أكتب الآن ، تلوح لناظري قدمي عمي وهي تحتك بورك الجمل ، وأتطلّع إلى الطريق البرية تتلوى أمامي وكأنها في الرمال آثار حية زاحفة ، بل لقد اشتد وقع الصورة أمامي ، فخيّل إليّ أن صرير الرحل على ظهر الجمل من تحتي وتحت عمي ، إنما هو صوت عظام قافلتي ، وقافلة شعبي كله تتهشم في جوف حيّة هائلة!

نـداء العـذراء!

في «شيبانة» يلتقي سهل رفح ، وسهوب الشيخ «زويد» مع السهول الممرعة القادمة من الشرق «الفارعة» و «القرين» ، «خبو الجباري» ، لتعانق جميعها كثبان الرمل المتدفق من «العجرة» ، معقل قبيلة الترابين الشهير ، ومرابع أنعامهم ، هناك كانت لأجدادي بقايا أرض تتكون تربتها خليطاً من هذا العناق بين الكثيب والسهل ، بين الطين والرمل ، ليصبح أديماً بهذا التركيب ليناً رخواً ، يلذ النوم فيه ، والمقام عليه . .

إلى هذه البقايا المنسية من أرض أجدادنا ، وفي الصيف التالي لصيف النكبة ، تحوّل والدي وأعمامي ، وتجمعت عليهم فيها بقايا العشيرة من شتى الأركان .

وعلى هضبة قريبة من البيت كنت أجلس طويلاً في ذرا شجرة كبيرة من «الرتم» ، أو في ظلها ، لأقرأ ، أو أحفظ سور القرآن الكريم ، لأعيدها خطباً ومواعظ على الناس ، ولا أذكر وقعها في قلوبهم ، بقدر ما أذكر جرسها في أعماق نفسي ، وقد كنت خطيباً مبجلاً في أعينهم ، ولكني كنت مهزوز الفكر في عين نفسي . . لقد كانت وشوشة الرمال عندي مع نسيم العصاري صفير سخرية مؤلمة ، وكان الصمت والهدوء مع نسيم الصباح كلمات طويلة من اللوم والعتاب الشديد!

وإلى الشرق منّي ، على بعد كيلومتر واحد ، وضعت «اللجنة

المشتركة» من العرب واليهود والأمم المتحدة علامات الحدّ الفاصل بيني وبين فلسطين، وهناك إلى الشمال الشرقي كانت تبدو من بعيد كروم «الشعوث»، و «أبو كوارع»، وقبة «الشيخ نوران»، لا يختلف لونها كثيراً عن الأرض المحيطة بها، كلها ظلال قاتمة، الأشجار الخضراء، مع الأعشاب التي جفّت، دون أن ترعاها غنم قومي وجماهم، ولكن هذه الجمال العجماء لا تعترف بالحدّ، والأغنام التي نظفت بقعتنا الضيقة من المرعى تندفع في إصرار عبر خطوط الهدنة، رغماً عن رعاتها، لتلتهم العشب الطويل الطري.

كأني أرى آثار أقدامي الصغيرة بين تلك الأشجار البعيدة، وأعد العصافير التي اصطدتها، والثمار التي قطفتها، والخيل التي ركبتها.. والعين تنتقل من كرم إلى كرم، ومن هضبة إلى أخرى، ثم ترتد كسيرة حزينة، . . . عندما تصل إلى البيوت التي تلمع إلى جانب كرمنا، وأكشاك المستعمرة الجديدة البيضاء التي أقيمت في قلب أرضنا.. ترتد العين كسيرة حزينة، الى كلمات المصحف المفتوح بين يدي، فيثور هذا التناقض المدمّر في أعماقي، وأحس بالتفاهة، وأشعر بالوجود المزيف، وأرفع على كتفي أعلام الجبن.. وهل بعد الموت من نهاية حياة.. وهل بعد الشهادة من جزاء عظيم. . . ؟!

ولكن مع كل هذا كنت أفلح دائماً في العودة بفكري إلى «الأمر الواقع» وكان واقعنا في تلك اللحظات يثير في نفسي «اليوم» المرارة والضحك معاً، كانت عربنا في ذلك الحين خلية نحل تدور حول نفسها، وحول «التعويضات». . . !!

فقد جاءنا من «رفح» أن لجنة خاصة تطالب اللاجئين جميعاً

بقوائم عن ممتلكاتهم المنقولة التي خسروها في الحرب الفلسطينية، أو التي استولى اليهود عليها تمهيداً لتعويضهم عنها.. وقيل: إن ذلك هو العدل الذي سيفرض على اليهود فرضاً، وهو في الوقت نفسه «العتبة» التي سنقفز منها إلى الوطن الحبيب.. ولمعت في الأفق آمال، ولاحت في النفوس بشائر، وأرسلنا إلى «رزم» من الأوراق البيضاء أسوّدها إلى رجال عشيرتي واحداً بعد الآخر، وبين الحين والحين يسأل أحد الحاضرين والدي: هل «نزوّد» يا شيخ حماد؟

فيقول الشيخ: إياكم يا ناس، لئلا يأكل الحرام الحلال، إياكم والزيادة، قولوا الحق، ولا شيء غير الحق...!

و «المقعد» عامر، ورجالنا حاضر أكثرهم، والشمس تهبط في غفلة منا إلى البحر، وظل بيت الشّعر، يمتد في سرعة إلى الشرق ليستر الجبال البعيدة عبر الأفق شرقي بئر السبع. وأنا أجمع الأوراق أمامي على قدر نحاس مكفأ، كنت أستخدمه «طاولة» للكتابة. وإذا بصراخ من الشرق قريب من خط الهدنة، يثور معه نباح كلاب، وحركة سيارات، ثم شوط من الطلقات السريعة، مع صوت رصاصات متقطعة، ويقف الرجال جميعاً، ويهرول بعضهم إلى العوالي ممسكاً بسلاحه، واندفعت مع البعض الآخر لمقابلة الرعاة، ومن بعيد سمعناهم يصرخون «نهبوا غنم أبي سنجر»!

* * *

لم يكن للرجل أولاد، وكان له بنت في الثامنة عشرة، هي التي ترعى غنمه، فانضم إلينا مهرولاً في الحال، ولما اقتربنا سأل الرعاة بأعلى صوته «سلمى يا أولاد..؟» قالوا: «والله ما ندري، الغنم وحدها هي التي رأينا اليهود يسوقونها نحو المستعمرة»!

كان الرجل في الخمسين من عمره بلحية خالطها الشيب، وجسم قد ركبه قليل من الشحم، تبدو عليه آثار النعمة، وكنت أهرول بجانبه، فسمعت «تنفسه» يتلاحق ليصبح كضبح الخيل، ونحن نقص الآثار خلف الرعاة، نفتش فيها عن آثار أقدام «سلمى». وإذا بشيء أسود كالعباءة الملقاة تبدو لنا في بقعة مفروشة بالرمل الأبيض ومحاطة بشجيرات «الثّمام»، فوسّعت خطوي، وتقدمت الرجل، وفجأة رأيت ما لم استطع إعادة النظر إليه، وما لم استطع معه أن أتقدم خطوة إلى الأمام!

كانت الفتاة قطعة ساكنة لا تتحرك، وكان ساقها الأيمن مثنياً على فخذها، وقد انحسر عنه الثوب الأسود، فبدأ الفخذ وكأنه قد امتص من نور الشمس الغاربة ما يميزه عن الرمل الأبيض من حوله..

قلت: مكانكم أيها الرجال!، تقدم يا عم عيد.. فاندفع الرجل إلى ابنته، ونشر عليها عباءته، وصنعوا منها شبه نعش، وحملوها كل يمسك بطرف، وانطلقت أمامهم، فلما وصلت البيت نبهت أمي لكي تذهب إلى بيت أم سلمى لتهيئها النسوة إلى رحلة القبر.!

ومع قافلة الجنازة في سواد الليل إلى مقبرة الشيخ «زويد» بعيداً إلى الغرب، كنت أركب على جمل واحد مع أمي، قلت لها وأنا أسوق الجمل ناحية، لا بد وأن المجرمين قد انتهكوا عرضها يا أماه...؟

قالت: والله ما أعرف يا ولدي، لأن الطلقة، (وهمهمت

بكلام فهمت منه أن الإصابة كانت في موضع حساس من جسمها!)

قلت : يا إلهي ، طلقة في . . . !؟

قالت : نعم ، وهي مصابة كذلك بطلقتين في نهديها . . ! وتجمع في ذاكرتي كل ما قرأته عن هؤلاء الأعداء، وما سمعته عنهم من حقد ضد البشرية جمعاء، ومن احتقار «للغوييم» بلا تمييز، وخيل إليَّ أنهم لم يلمسوها، وأنهم آثروا ـ عن وعي وتصميم ـ أن تذوق الموت من حيث ما يمكن أن تشعر باللذة، وأن تنزف دماؤها من حيث ما تعطي البقاء لأجيالنا القادمة . . !

وحططنا الرّحال بين أشجار الأثل الطويلة على حدود المقبرة ، وفي دقائق معدودة كان القبر معداً ، والرجال ينادونني «الصلاة واجبة يا خطيب»!!

ووقف «الخطيب» أمامهم والجثة أمامه وبدأت أكبّر ، فلما وصلت في قراءتي إلى الدعاء المأثور : «ونقّها من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض . . » أحسست أن الجثة قد تحركت ، وأن الفخذ قد انحسر عنه الثوب ليشعّ منه النور في غبش الليل ، وأحسست بنداء في صوت «بدوية» ملهوف ، «يا طلاب الثأر . . جاي ، يا أولاد الحلال جاي . . »!

ولا أذكر ما حدث لي بعد ذلك ، ولكني كنت أسمع همساً متقطعاً . . . «أصابته الشمس ، مع البرد والتعب» واجتزت أياماً من الحمى ، كنت خلالها أعد الجيوش ، وأقتل اليهود بدون حساب ، والرصاص يمزق جسدي في كل معركة ، فأتحسس العرق الصبيب ، دماء تسيل ، والصوت على حاله يتماوج في رأسي بين القوة والضعف .

وفي فترة من سكون الحمّى، ومع حبوب «الأسبرو» وقف رجل من قومي «الله يشفيك يا فلان، اكتب لي إن كنت تقدر، قبل أن يفوتني التعويض»!، وهز الرجال من حولي رؤوسهم «يجوز.»!! فتناولت الورقة والقلم، وأخذت أكتب الأمتعة التي أحرقت، والغلال التي تركت، والأنعام التي نهبت وناولت الورقة للرجل، وقذفت بنفسي على الوسادة والنداء يجلجل في رأسي «يا طلاب الثأر جاي . . .!»

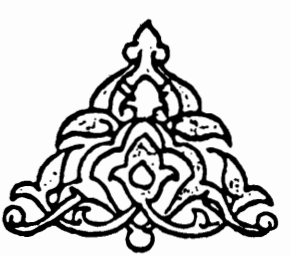

زيدان يعود إلى الكرم!

كانت تبدو من بعيد نقطة سوداء وسط صفحة الرمال البيضاء المبسوطة من حولها، كنت أتطلع إليها أقيس المشوار من قوز «أبي عقل» وأنا قادم من المدرسة عندما تبتعد كروم خان يونس، وكنت أراها من على سفيان الرمال حين تبتعد عن أمواج البحر عن الشيخ زويد جنوبي رفح، وكنت أحس كأنها تحتي في السهل عندما أراها من الجنوب، من على هضاب «العجرة» حين نكمن في عز الشتاء، أو تتجمع من حول حقول البطيخ في الأحقاف من تحت الهضاب.

كنا نسميها «أثلة الدهاينة»، نسبة إلى عمٍّ جدي الملقَّب «دهينين» فهي تتوسط أرض أولاده العشرة، وكان لهذه الأثلة منزلة خاصة في نفسي شأن أولئك الذين يحنون إلى أحيائهم أو دورهم في المدن، كانت الملعب، والأرجوحة، وبديل الجبل الوعر الذي نتسلقه صعوداً وننزلق على غصونها هبوطاً، وكانت تختزن حين ترتفع الحرارة معيناً لا ينضب من قطرات الندى.. تتساقط في وصلات موسيقية ما زالت ذكرياتها تحرك أعصابي كأني أتابعها الساعة... وكانت أرضية الأثلة منها كأنها في صيب من المطر، نتمدد على برودته بعيداً عن أشعة الشمس، ونصمم من الثرى تحتها بيوتاً من أحجام وأشكال شتى، نهدمها بضربة يد أو بحركة من أرجلنا، ثم نعود للتسابق في بنائها مرات أخرى.

وكان أهم من هذا كله أن أثلتنا العزيزة المفضلة تشكل لي ولأترابي، المنطلق الذي نتجمع تحته بحجة المقيل أو اللعب، للإغارة

على الكرم القريب إلى الشرق منها، كرم العم زايد!

كان الكرم في بطين يتجه إلى الشمال الشرقي كأنه يتقي ريح الغرب حين تتحرك الرمال في الشتاء، وكانت فيه أشجار، أذكر منها اليوم: العنب الأسود والأبيض، وأذكر منها التين والرمان، وكنت أرى تلك الأشجار صغيرة مجرد عصي في الشتاء، وأراها تكبر وتكبر حتى تتحول إلى كتلة خضراء متشابكة في الصيف، كأن جذورها تتمدد بدون عائق في الأرض اللينة، وأغصانها تتحرك دون عائق في السماء...

كان الكرم مفتوحاً كأنه يدعو كل عابري السبيل، وكان العم زايد يرعاه عن البهائم الضالة فحسب، فلم يكن قد زرعه ورعاه من أجل التجارة أو البيع، لم نكن نعرف أن أحداً في الديرة كان يبيع العنب والتين، ولكنه مع ذلك يلاحقنا، ويذيقنا طعم عصاه الطويلة إذا أمسك بواحد منا، ليس لأننا نحب أن نذوق هذا الثمر الحلو من على هذا الشجر المبارك، ولكن لأننا نكسر الأغصان، ونجردها من ثمرها قبل أن ينضج.. وكان له عليّ عتب خاص، لأني القارىء والخطيب الذي يعرف الحلال والحرام ـ مع أني لم أتجاوز العاشرة ـ ولا أقل شيطنة عن زملائي، وكنت أستحي منه، خاصة حين يطلب مني في مجمع الرجال أن أقرأ لهم القرآن، وحين يأخذني بيدي لزيارة الكرم، والتفتيش على مهل ليختار لي الثمر اللذيذ الناضج فيه.. وحين ينكر علي إنكاره الشديد، لمصاحبتي لثعالب الكرم أولئك...

ولقد توثقت بيني وبين العم زايد العلاقة من أيام الكرم، إلى الحد الذي يصارحني فيه بمرض ابنه «زيدان» ويسألني إن كنت أجد في كتب «البروج» أو قصص الجن، ما يمكن أن أساعده لتخليص

زيدان من هذا الشر الذي هو فيه.

وكنا نعرف عن زيدان أنه مجنون، وكان عربنا يسمونه مجنون زايد، وربما كانت ملاحقة الأولاد له ومناداته بالمجنون كلما رأوه من الأسباب التي ساهمت في تدهور حالته، رغم أنه لا يؤذي أحداً ولا يعترض على أولئك الذين يغيرون على كرم والده رغم أن هذا الكرم هو مقره الدائم، لقد كان شارد النظرات، ويبتعد عن الناس، ويأنس إلى الجمال يتحسس وبرها ويحك أعناقها، ويردها عن الكرم برفق، وكان أسوأ ما سمعناه عنه أنه كان يتخلص من ملابسه أحياناً، ويركض جيئة وذهاباً دون أن يسابقه أحد، ولا يأبه لنصيحة أو يستجيب لأي أمر.

لم أستطع أن أساعد العم زايد في علاج زيدان، ولم يستطع أن يساعده المعروفون بفتح «الدفاتر» وحشر الجن، في هذا العلاج أيضاً، وبدا أنه أخذ يتعايش معه على هذه الصورة، وتباعدت عني أخباره مع فصول الدراسة وظروف العيش، إلى أن التقت العشيرة لمواجهة الأحداث الطارئة مع حركة الجيوش العربية، والحرب مع اليهود، تلك الأحداث التي دفعت بعشيرتنا كلها إلى الغرب، إلى حدود سيناء...

كان للعم زايد ابن آخر اسمه عيد، يكبرني قليلاً وعرف بين العشيرة بهدوئه ورجاحة عقله، حتى إن البعض ليقول: إن ما أخذ من زيدان، أضيف إلى عيد، وكان صاحب همة ونخوة لا يدعو الداعي إلى أمر إلا كان في طليعة من يلبي النداء، وقد توثقت بيني وبينه أواصر القربى في ذلك الفراغ واليأس الذي ينشر ظلاله علينا، وزرت معه زيدان في «حجيره»، وكأنا نتعارف من جديد، كان

زيدان هادئاً كعادته ، ولكن من الواضح أنه سُرَّ بلقائي كثيراً ، وأرخى رأسه وأنا أمسحه وأقرأ ما تيسر من القرآن ، وأدعو الله له بالعافية والشفاء . لقد أحسست بميل عجيب إلى زيدان ، ولم يخطر على بالي قط أن أخافه كمجنون ، ولقد بدا لي أني أتعلم فعلاً من زيدان ، أتعلم منه الصمت واللامبالاة ، في أيام كان الخوف هو القاسم المشترك بين الناس ، وكانت الثرثرة هي الوسيلة الوحيدة لقطع تلك الساعات السوداء ، فصرت أروح وأغدو عليه في الصباح والمساء ، حتى ظن صاحبي عيد ، وظن معه العم زايد ، أنني إنما أمارس معه وسيلة من وسائل العلاج التي لا يعرفها إلا «القراء» أمثالي ، وتغيرت إلى حد ملحوظ علاقتي بأهلي وقلَّت متابعتي للأخبار ، وأحاديثي الوعظية للعرب ، ومساهمتي في اتخاذ القرار الملائم للعشيرة . . . حتى صرخ أبي في وجهي يوماً : «لا نسأل عنك إلا وجدناك عند هذا المجنون» . ولقد حزنت ، وزاد تبرمي بأحاديث الناس ، وقلت لهم : إن زيدان ربما كان من أفضل عقلائكم!! وفرح العم زايد ، وفرح عيد بهذا الكلام ، وظنوا أني قدمت له العلاج المناسب ، وأنه في سبيله إلى الشفاء الكامل! كان زيدان يزداد كل يوم أنساً وودّاً معي ، وحين أخذني النعاس مرة طوى جانباً من «الحجير» علي ليغطيني به ، وحين فتحت عيني على أشعة القمر في تلك السماء الصافية ، تلفَّت إلى صديقي فلم أجد له أثراً ، فتحاملت على نفسي إلى البيت لأتابع النوم دون أن يلحظني أحد .

كان زيدان في مكانه عندما عدت في اليوم التالي ، وكان يهز رأسه بسرور واضح ، وكأنه يجيبني على كل ما في رأسي من أسئلة . . وهو يتلفت يمنة ويسرة ، ثم يدس شيئاً في جيب صدري ، وحين

تلمسته كان حبات من التين الطري أوشك على الجفاف! ، لقد وضع اصبعه على شفتيه محذراً ، وهو يتلفت نحو عريشة أهله ، ويومىء إلى الأفق نحو الشرق ، ليروي لي قصة غيابه ، والمكان الذي جاء منه بهذه الهدية الثمينة!

كانت قرارات الأمم المتحدة ، والخطابات التي تتناقلها الإذاعات ، هي حديث الناس في مقعد الرجال ، وكان نقلة الأخبار من البدو يبالغون في نفخ هذه الأخبار بالصورة التي تتلاءم مع آمالهم في تلك اللحظات ، وكان الشيخ يأتي للعرب بين الحين والحين بأنباء قرب العودة إلى الديرة ، بحيث يتحول الكلام وكأنهم فيها ، ويعلو الصياح أحياناً حين يثيرون خلافاتهم القديمة على الحدود بين مزارعهم وكأنهم يعيشون في صميمها . إلى أن جاء الشيخ مرة بنبأ من «الدولة» عن التعويضات التي قررتها الأمم المتحدة عن الأموال المنقولة التي خسروها نتيجة للعدوان اليهودي ، إذ ذاك بدأت مهمتي المؤلمة في جدولة هذه الخسائر لكل بيت على حده .

كان العم زايد ، وكان ولده عيد ، يسردان لي هذه الخسائر لأدونها لهم ، تمهيداً لتقديمها لرجال الأمم المتحدة ، وكان صاحبي عيد يلاحي أباه لتسجيل خسائر الكرم ، ولكن العم زايد رفض ذلك رفضاً قاطعاً ، لكي لا يخسر الأجر من ثمر ذلك الكرم الذي يأكل منه الناس ، حتى ولو كانوا من اليهود . . . وليكن ذلك «سبيلاً» لوجه الله ، ما دمنا سنعود إلى كرمنا ويعود إلينا!

ومضى الناس يتحسسون مواعيد صرف التعويضات ، ويتهيئون للعودة للأرض والمخازن ، و «البوايك» ، وتمددت أمامهم فسحة الآمال ، ولكن العم زايد عاد يحدثني في خلوة ، أن زيدان

يذهب ليلياً ، أو ليلة بعد ليلة إلى الكرم ، وأنهم وجدوا آثار أقدامه في كل مرة ، وأن اليهود قاتلوه حتماً إذا أحسوا به ، خاصة وأن لهم مركزاً قريباً من تلك الأثلة ، يروحون ويغدون عليه ، يفتشون «بالنواظير» من فوق الأثلة عن كل ما يتحرك في المنطقة كلها ، ويستشيرني إذا لم أستطع التأثير عليه أن يقيدوه بالحديد!

ولقد غضبت من مجرد التفكير في ربطه بالصورة التي يقترحونها ، وجلست طويلاً عنده وأنا أمسح رأسه كالعادة ، وأقرأ ما تيسر لي من الآيات وأحاول أن أفسر له أن الوقت لم يحن للعودة إلى هناك!

كان يهز رأسه في هدوء ، ويتفرس في وجهي طويلاً ، كأنه يعاتبني ، ولا يتكلم مطلقاً ، بعد أن كانت تفلت لي منه بعض الكلمات ، ثم تشرد نظراته وتتغير ملامحه ، ويغطي رأسه كأنه يقول لي : لقد انتهت المقابلة!

كان الناس ما زالوا يتحدثون عن التعويضات ، ويتلاومون في عدم التقيد بالحقيقة في تسجيل حقيقة خسائرهم ويتهمون البعض بأنه «أزعر» لم يخسر شيئاً ، ومع ذلك سجل أكثر من أولئك الذين نكبوا في أموالهم فعلاً ، ويقولون : إن الكذب ربما أكل الصدق ، في مجلس كانوا يحاكمون فيه بعضهم بعضاً ، وكان العم زايد وولده عيد في شغل من أمرهم ، ذلك لأن زيدان قد هجر مكانه المعتاد .

كان البعض لا يرى أهمية لغياب زيدان ولا لحضوره ، بل إن بعضهم كان يرى أن العم زايد كان سيستريح حين يأخذ الله وديعته من زيدان . . ولكني أحسست كأن أحداً قد قذف علي موقد النار ،

حتى ما أسيطر على نفسي ، لقد وقفت في ارتباك أنادي بعض الشباب نرافق العم زايد . . .

كانت الشمس تهبط نحو البحر لتسلط أشعتها على السهوب الشرقية ، وكان أصحاب النظر الحاد يستطيعون أن يروا الأثلة من أي «قوز» أو علوة بيننا وبينها ثلاث ساعات للمشي الجاد . .

كان علينا أن نصل إلى ذلك الكرم ، الذي نظن أنه هو الذي قد أصبح المقر الجديد لزيدان ، ثم نقرر بعد ذلك وجهتنا ، وكان علينا فقط أن نتجنب «نواطير» اليهود ، قبل أن تغيب الشمس .

كنا نعرف الأرض كثبانها ومنحنياتها ، ونعرف شجرها ، ومكان الاختفاء فيها ، فانحدرنا جنوباً قبل أن نتجه إلى الشرق .

كنا خمسة ، وكان عيد يتقدمنا طليعة وكان العم زايد يهرول بجانبي ، وكان واحد من الصحب يهرول بعيداً عنا من الشمال والآخر من الجنوب ، والكل يده على سلاحه ، حتى إذا صرنا في موازاة الكرم من الجنوب اتجهنا إلى الشمال لنطل عليه من قريب .

كان السكون مطبقاً ، حتى كأن سيارات اليهود قد كفت عن الحركة في الطرق البعيدة ، وكان القمر قد أشرف من النصف الغربي ينعكس على الرمل الأبيض ، ويزيد من سواد الأثلة وضخامة الكرم ، ويتحرك الجو المثير مع حركة عيني في مثل الدنانير ، وننسل إلى الكرم بملابسنا البيضاء كهوام الأرض ، لا يسمع لنا حسّاً ، ولا يرى لنا خيالاً حتى دخلنا بين الشجر!

كانت الأشجار قد كبرت مع ظلها بين البقع البيضاء التي تصل إليها أشعة القمر حتى وصلنا إلى تلك التينة!

كان زيدان قد تكوم على نفسه ، كان في سبات عميق ، وتحلقنا من حوله ثلاثة : العم زايد وعيد ، وأنا ، ورفيقانا يرقبان الأطراف . . . ومددت إليه يدي لأوقظه ، لقناعة الجميع بأنه أهدأ ما يكون معي . . .

ولكن زيدان لم يتحرك ، كانت يده رخوة ، فلكزته مرة أخرى ولكنه لم يتحرك . . . وفجأة أدركت أن زيدان في غير السبات المعتاد . . . وتحسست يده الأخرى الممدودة تحت رأسه كانت كفه مقبوضة ، كانت مملوءة من التين الطري الذي أوشك على الجفاف!

وهجم عليه العم زايد يرفعه ، كان تحته بقعة سوداء ، تلمستها وإذا بها من الثرى اللين المبلل ولكنه مبلل بالدم القاني الذي امتصته الأرض من صديقي زيدان . . واحتضنته من يدي العم زايد ، كان خفيفاً تكوم في صدري ، وأخذت أمشي به ، ولكن أخاه عيداً قد احتضنه بدوره ثم مشى يهرول به في خفة كأنه لا يحمل شيئاً إلى أن انحدرنا وراء المرتفع بعيداً عن الكرم .

حين عاد رفيقنا بالبعير بعد ساعات ، وحزمنا صاحبنا على جانب الرحل كنت أنا رفيقه وعديله على ظهر البعير ، وتساوت في أعماقي حقائق الموت والحياة ، وفجأة وجدتني أبكي . . .

كنت أسمع العم زايد يقول : يا مسكين ، وهو يحضنني بعد أن سقطت عن البعير!

لا أذكر كيف وصلت إلى البيت ، ولا أذكر كيف واروا الجثة بعيداً في مقابر الأجداد ، في جنح الظلام ، لكي لا تعرف السلطات بقصة التسلل والموت وراء الحدود ، ولكني أذكر بعد ذلك كيف رأيت

«عيداً» العاقل ، مقيداً في الحديد وهو يصر على أسنانه ، وعيونه كأنها تجمدت في رأسه ، وهو ينظر إلي دون أن يبدو عليه أنَّا تعارفنا في يوم من الأيام .

من قتل أخي!

أين يقع الكلام عن الأرواح، بين الحقيقة والخيال..!؟ لقد حاولت أن أعرف، وقرأتُ كثيراً مما كُتِبَ، وتتبعت كثيراً مما سمعت عن تجاربَ وممارسات.. لكي أتصل بالأحبة الذين ذهبوا في هدأة الليل المظلم، وكان في مقدمتهم أخي سليمان.. لقد تمددتُ طويلاً في سكون حين يظلم الليل، وجلست وحيداً في حنايا الكُثبان، و«ريضان» الجبال، و «الفت»، وكنت أحس بأنه جاء.. كأني أسمعه يستجيب لندائي القلبي بطريقته القديمة «فرحك»، «يا عونك».. «هاه.. جاك!».. وحين أحملق في الخيال القادم يختفي كل شيء وينتهي كل شيء...!

لم يكن سليمان شقيقي، فقد كان أخي لأبي، ولكنه من دونهم جميعاً، كان شقيق روحي!

كنا أتراباً، ولكن كنت الأخ الأكبر قليلاً، وتلك مزيّة كان لها شأنها بين الإخوة في العائلة وفي العشيرة كُلِّها، ولكني إلى جانب ذلك كنتُ الوحيدَ الذي يفك الخطَّ، ويقرأ القرآنَ، وقصةَ الزير، وسيرة بني هلال.. ذلك الذي جعلني مدلَّلَ العائلة، يسعى الجميعُ لإرضائه، وتلبية طلباته!!

ولكن سليمان كان شيئاً متميزاً بالنسبة إلي... كان هو الذي يسبق عَدْواً لملاقاتي يومَ كنت أقترب من البيت، قادماً من المدينة البعيدة في «العطل» المدرسية، وكان هو الذي يروي لي تقريراً كاملاً

عمّا حدث في غيابي ، وكان هو الذي يسبق الجميع للرد على ندائي ، وكان لسليمان أسلوبُه الخاص في رعايتي وإرضائي ، في الربيع كان يحتفظ لي بثمراته من الجميد والفريكة ، وحين يُولي الصيف ، وتجفُّ حقول البطيخ ، وينقضي ذلك الموسم المشهور في بلادنا ، كان لسليمان مخزنه من البطيخ ذي القشرة الغليظة ، الذي يخصني به ، ويحرص على أن استمتع بأكله بعيداً عن الرقباء من الإخوة والأتراب . . !

وكان لسليمان علاقة خاصة بتلك الناقة التي يربطونها في البيت للحليب ، كان يقلب القدر ، ويقف عليها ليصل إلى أشطارها ، يتلمسها ويمسح الضرع ، ثم يحلب ، وهي تشمه ، وتجتر في رتابة وهدوء ، وحين كنت أحاول حلبها ولو لمجرد التجربة ، كانت تفتح في وجهي فكاً واسعاً جداً توشك أن تلتهمني . . وحين أكون في غفوة الصباح والشمس تمد أشعتها مع الندى ، تسرب في أعضاء الجسم خدراً لذيداً ، كان أخي يلمَسُني برفق ، وقدح الحليب عند رأسي فوقه لمة من الزَّبدَ ، فأقش بعيدان «المصيص» الرغوة ، ثم أنهل من الحليب ما شئت ، ليأخذ القدح بعد ذلك للآخرين . . !

وكان سليمان رفيقي الأول في الرياضة والتدريب ، كنا نتضارب بالعصي ، وكانت ضرباته تصل إلي ، وكان هو الأقدر على اتقاء الضربات ، وحين انتقلنا إلى مرحلة اللعب بالسيف ، كان هو المعلم ، وكان إخفاقي في الحفاظ على أطرافي من لمسة السيف يثير الضحك والسخرية ، ولكن سليمان كان يُسَوِّغُ ذلك بكثرة مشاغلي في قراءة «السبعة ألسن» ، وأني ما خلقت لشرور البدو وتقاتلهم ، . . غير أن سليمان لم يكن يرضى إلا أن أكون الفائز حين نتسابق على

الخيل أو الجمال، وكان يستحثني دائماً، وكثيراً ما كان يركب خلفي، لنسبق معاً في مواسم الأعياد، ومناسبات الأفراح..!

وحين كَبِرْنا كان الناس ينادونني باسمي، ولكن سليمان كان لا يتحدث عني، أو يناديني إلا بلقب «الكاتب» أو «الخطيب»..، كان يذكرني بوقوفه حين أقبل، بإمساكه عن الطعام قبل أن أبدأ أنا، بإيمائة رأسه إعجاباً حين أتحدث.. كان يذكرني بهذه الحركات التلقائية الساذجة، بأني في مكان القيادة.. بالنسبة له على الأقل..

وكان سليمان قد أصبح خادم العائلة الأول، ومسؤول الحركة.. كان هو الذي يرود مرتع الغنم والإبل، وكان هو المسؤول عن توفير الماء والزاد.. وحين ضرب الزمان ضربته، «وحامت في الجو طيارة»، كما كان الرعاة ينشدون، تحمل هو الثقل الأكبر، حين تحركنا من الديار التي عليها نشأنا، حين تحركنا من الوطن.. من السهول الخصبة غربي بئر السبع، نحو الغرب، لاجئين، إلى ما تبقى للعشيرة والعائلة من مواريث ومراعي في سيناء...!

وحين خطبنا له ابنة عمه على عجل، كان فرحُه فرحاً للعائلة كلها التي ابتسمت من بين الدموع، ومن تحت أطباق الأحزان في أول خريف بعد الكارثة.

لقد انشغلنا نحن الشباب في بناء «القبة» التي يُسميها البدو «البرزة»، المفروض أنها ستضم العروسين ثلاثة أيام أو أسبوعاً، وانشغل الرجال والنساء فيما ينشغلون به في مثل هذه المناسبة، فلم يَفْطَنْ أحد إلى أن «نسلة» ـ وهو اسم الناقة الفاطر وبناتها وأولادها، لم تبت في مراحها المعروف ليلتي العرس، وارتفع صوت أبي.. هذه

«اللعينة مدت بالإبل وضيعتها»! وانطلق أكثر من واحد يفتشون.. ولكنهم عادوا في ظلمة الليل بدونها.. وجرت همهمة... عرفنا بعدها أن العريس قد انطلق وراءها...!

ومضى الليل وأنا متميز غيظاً من الناقة والأباعر كلها، التي أفسدت علينا وعلى أخي فرحة العمر، ولكني كنت على ثقة أنه الأقدر على اكتشافها واللحاق بها.. ولكن العريس لم يعد في الصباح كما كنا نقدر جميعاً، فقررت أن أساهم في المهمة أيضاً...!

كانت «العرب» قد استقرت شمالي مقبرة «أولاد علي» على حافة وادي العرَيش، في خبت شرقي كثيب الطير، وركبت الفرس ومعي أخي سلامة وأحد أبناء عمّي راجلين، وقد تحركنا مع أثر سليمان من عند انفلاته من قبة العرس...!

نهرول حين يبدو الأثر واضحاً في الأرض الرخوة، ونمشي على مهل نتابع الأثر في الأرض الجلد، وأحياناً ننطلق جرياً حين يتراءى لنا أثره متخطياً حافة الكثيب المقابل، إلى أن هبطنا في وادي «الأزرق»!

لقد ضاع عنا الأثر في الوادي، بين أشجار الأثل الكثيفة الزرقاء التي لا بد أنها أعطت الاسم لهذا الوادي العريق الذي ينحدر من جبال «حفير» والنقب الشرقية البعيدة، التي تتجمع أوديتها في «الملاقي» شمال غربي عوجا حفير، لتسيل كلها في هذا الوادي الذي نجوس فيه بَيْنَ الكثبان، وقد هبطت الشمس نحو المغيب، وطريق الأسفلت الذي يربط العوجا حفير بِرَفَح، والذي تسير عليه تلك الأيام سيارات رجال الهدنة الذين يلتقون أحياناً في العوجا حفير، يمر

قريباً على كتف الوادي ، ونحن نعلم أن اليهود يغيرون على من بقي من القبيلة في تلك الأرض التي اتفقوا في «رودس» على أن تكون مجردة من السلاح ، يغيرون ويقتلون ، ويتربصون قريباً من بئر الملاقي ، ويستعملون أحياناً هذا الطريق عندما يريدون ، ولكن على غير تنظيم تلافياً لأي كمين من هؤلاء البدو الذين يُطاردونهم ، لقد اعتدنا هذا التوتر الذي يثيره مثل هذا الوادي في رواده ، ولكنا أحسسنا بقلق مضاعف ، ونحن نفتش عن أثر سليمان الذي ضاع منا ، هل يمكن أن يكون قد صادف اليهود الذين يتربصون بأمثاله على البئر الذي لا يبعد عنا شرقاً أكثر من ميل واحد . . هل جاءت الإبل التي تقودها الناقة لترعى شجر الأثل . . ، نحن لا نعرف أثر الناقة الذي يعرفه سليمان ، فلا يمكن أن نعرفه بين أثرها وآثار الإبل الكثيرة التي ترتع ، أو تمر بالوادي ، لقد بدأ الظلام يُضاعف من سواد الشجر الكثيف ، وكان يشتد فزعنا عندما يفر طير من مكمنه ، أو يهتز غصن شجرة من حركة الهوام الكثيرة التي تلجأ إلى هذه الغابة . . وفجأة يَنْبُحُ كلب قريباً إلى الشمال . . وكأنه بوق الأمان . . فاتجهنا نحو الصوت ، لأنه لا بد أن يكون لعائلة ، أو رعاة من قومنا من الذين يضطرهم المرعى إلى هذه المهلكة . . قريباً من طلائع اليهود!

كان «عودة» هو اسم الشاب الذي استقبلنا ، والذي تربطنا به قرابة بعيدة ، لقد فوجىء المضيفُ بهيئتنا واضطرابنا خاصة وأنه سمع بفرح سليمان ، وأننا نقود معنا الفرس في تلك الكثبان والأحقاف الرملية الوعرة والتي يسميها البدو «العقدة» ، وكانت دهشته مضاعفة أن نكون وراء سليمان العريس ، الذي هبَّ هو دون غيره يتبع الناقة وقطيعها . . لقد رأى «عودة» أثر عدد من الإبل يتجه إلى شمالي

«القرن»[1] وكان من الواضح أن «عودة» من أولئك الذين يتفحصون آثار الأقدام قبل «الزول» أو الوجه . . قال لقد كنت أنوي أن أتبع القطيع ، لأني لم أر معه أثراً لراع يتبعها ، ولكني كنت أنتظر الفرصة المواتية لعلي أخطف دلواً من هذا البئر الذي ينطره اليهود وهو يعني «بئر الملاقي» ، ولقد حدثنا صاحبنا عن طريقته في كشف كمين اليهود قريباً من البئر ، وعن أسلوبه في مغافلتهم ، وعن اضطراره أحياناً إلى أن ينقل الماء من رفح ، أو وادي العريش قرب المقبرة إياها حيث يمشي ساعات الليل والنهار كلها ، عندما يحس أن الموت يتربص به على البئر القريب ، وحدثنا «عودة» عن إبل «اشتيوي» التي قتلت كلها ، وعن غنم «أبو صباح» التي أخذها اليهود ، وحدثنا معجباً عن شباب «يناوشون» اليهود ، ويكمنون لهم ، «ويقال : إنهم يضعون لهم الألغام في الطرق» ، وكان صاحبنا من ذلك النوع الثرثار الذي لا يسكت ، فكيف به يسكت عن الدواهي الكثيرة التي مرت به أو مر بها ، ولكن الكلب أخذ ينبح مرة أخرى ، فأرتج عليه . . وقد وقف وهو يقول : هذا الكلب سيكشفنا «لن أصحبه مرة أخرى» ، ولم نكن أقل منه قلقاً ولهفة لمعرفة سبب نباحه ، فلفنا الصمت المطبق فترة أحسست بها طويلة جداً . . إلى أن عدنا للتجمع في هدوء والحديث في همس . . ربما كان نباحه على أحد المارين من بعيد . . !!

كان عودة يقول : «أشارطكم» أن «الناقة الآن موجودة في الدبة أو حواش» وتلك كانت ديارنا التي ننزلها في الشتاء ـ ويضيف : «هذه (الكُهْنة) ـ يعني الناقة ـ تعرف مأكلها ومشتاها» . . !؟

---

[1] وتلك ميزة فريدة لأهل تلك الديرة الرملية ، إنهم يتعلمون منذ الصغر معرفة آثار أقدام الناس وآثار الحيوانات أيضاً ، وخاصة الجمل ، وكان الناس خارج هذه الديرة يعتبرون هذه الحقيقة التي يعرفها أهل المنطقة ضرباً من المبالغة والتخمين والكذب .

لم نكن نحمل سلاحاً، فقد كان حمله جريمة كبرى حيث نقيم في سيناء. . . ولكنا نعرف أن سليمان كان قد أخرج بندقيته المدفونة في مكان أمين يعرفه هو وحده، ونحن لم يخطر لنا على بال أننا سنصل إلى هذه المرحلة التي يكون فيها السلاح بعض الحياة، أو الجزء الرئيسي منها، ولم يكن «عودة» يملك غير بندقيته، وكان الرجل على استعداد لمصاحبتنا لولا مشكلته مع «شليته» من الغنم، وهي مشكلة الناس المزمنة كلهم في هذه المنطقة ونعني بها الماء ومشكلة إحضاره من البئر قبل الصباح. . !

لقد تركنا الفرس عند عائلة «عودة» وانطلقنا في خط مستقيم إلى «حواش». . . !

كان القمر قد بدأ يرتفع فوق الهضاب الرملية، وقد أخذت اليرابيع والجرذان، وبنات عرس تُطارد بعضها بعضاً، ونور سيارة يلمح ويختفي في الحنايا البعيدة شرقي عوجا حفير، وصوت «الموتورات» وحركة الآلات ربما في الخلصة وعسلوج ـ كأنها خلف الكثيب في هدأة الليل، ونحن نعلو ونهبط مع الكُثبان والأحقاف، وشجر الرتم «والعاذر»، والعوسج كالإبل الهاجعة، وقد تسرب إلى أنفسنا شيء من الهدوء أخذ يغلف الخوف والقلق في نفوسنا شيئاً فشيئاً، لأنا لم نكن نمشي في أرض نعرفها فحسب، وإنما كنا كأنما نلتقي بغائب عزيز، أو نعود من غيبة طويلة إلى الديار، لقد كان المشي في تلك اللحظات أقرب ما يكون إلى عملية لقاء، أو عناق بين الأرض وأبنائها!

بين الحين والآخر، يشق الصمت نُباح كلاب الرعاة الذين يغامرون بدفع «حلالهم» إلى الحدود الغربية لفلسطين فراراً من

القحط في سيناء، يقاتلون الطائرات اليهودية التي تلاحقهم بالرصاص والقنابل، لوجودهم في الأرض التي أصبحت محظورة عليهم، كان ذلك النباح إلى الغرب، وحركة الآلات إلى الشرق، هي التي تمثل الواقع الذي يضغط على صدورنا ونحن نتستر بالليل للمشي في بلادنا.. لنلحق بالعريس الذي يُلاحق هذه الإبل الضالة!

كنت أسائل نفسي وأنا أرقى مع مهيل الكثيب. وأهبط مع صفحة «الحقف» أسائل نفسي عن هذه الإبل هل هي ضالة فعلاً..!؟

هل ناقتنا «الكهنة» قد ضلت طريق مرعاها، أم أنها تعرفه أكثر مما نعرفه نحن، ولكنها بالتأكيد تجهل بعض ما نعرف نحن عن خطوط الهدنة، وعن قرارات الأمم المتحدة، وتجهل عدم قدرتنا على العودة إلى نفس الأمكنة التي تفر هي إليها، ولكن هل نحن غير قادرين على العودة فعلاً..!؟ وكيف لا نقدر وها نحن نسير إلى حيث نريد تحت جنح الظلام، لماذا لا نفعل ذلك في رائعة النهار، ونتخذ للأمر أهبته، أم أننا نخاف المواجهة مع اليهود... نخاف الموت، وأي موت أفضل من موت يأتي مع هذا الدرب، ولماذا لا نختار نحن الموت بدل أن يختارنا هو...؟ وهل فعلت الناقة.. هذا الحيوان الأعجم، ما كان يجب أن نفعله نحن...!

كان من عادتي دائماً عند ضرورة المشي الطويل، أن أشغل نفسي بقضية ما، أو بحلم من أحلام اليقظة، لأسد منافذ التفكير في طول المسافة أو تعب الأقدام ووعورة الطريق، وكنت هذه المرة بهذا الحديث مع النفس أشد استغراقاً وأكثر انشغالاً، فلم أفِقْ إلا على

كلام أحد الصحب : ذلك هو «قوز» حواش!!

أنا في الديرة الآن ، أعرف الشجر والرمل ، والحنايا ، والتلاع ، هذه الأرض التي نمشي فيها ، هي لوالدي ، ومن وراء الكثيب تبدأ حصة عمي عيد ، كل قطعة من الأرض لها اسمها وذكرياتها هذه هي «التيهية» حصة أبي ، وتلك هي «السطلة» حصة عمي ، وهناك تبدأ حصص أعمامي الآخرين : سلامة ، وسعد ، وسالم ، وهذا هو حواش قاعدة أرض العائلة في هذه المنطقة ، حواش هذا الاسم الذي لا أعرف عنه شيئاً ، ولكني أعرف أن هذه الهضبة الرملية اسمها «قوز حواش» وكذلك النقع الذي ينداح من تحته اسمُه «نقع» حواش ، وكذلك يُسمى الحقف الكبير الذي يتكىء عليه هذا القوز ، أما لماذا سمي بهذا الاسم ، فإني لا أدري ولا أعتقد أن أحداً غيري يدري كذلك ، والناس ما زالوا يتندرون بتلك القصة عن «حوَّاش» والخطأ في نسبة الأرض ، والعرب التي كانت تسكن هناك إليه ، فقد كانت «عربنا» التي تتجمع من حوله يسمونها عرب حواش . . . وفي تلك السنة ، قبل الرحيل ، مر ركب من قبيلة التياها في سيناء بهذه الديرة ، وفي العادة أن الركب عندما يتحرك من عند «عرب» يسألون عن العرب التي سيلقون عندها القرى في طريقهم ، فقيل لهم : أمامكم «عرب حوَّاش»! وحين وصلوا إلى عربنا ، تفرَّسوا في وجوه الرجال ، ليتعرفوا على «حوَّاش» ، فظنوا أنه عمي المرحوم عيد ، وكان صاحب هيئة في جسمه وملبسه ، فأخذوا يبادلونه السلام . . . يا شيخ حواش! ، واضطر هو تأدباً مع الضيوف أن يبادلهم المجاملة والحاضرون يهرول أكثرهم بعيداً لكي يضحك ، لأنه لم يستطع أن يمسك نفسه . . !

وأنا أقول لعمي، من هو إذن حواش، فيقول هو ويقول غيره: قد يكون رجلاً كريماً من تلك القبائل التي غلبتها قبيلتنا على هذه الكثبان، وقد يكون هو اسم المكان نفسه، لأنه يحوش الناسَ ويجمعهم أيام القحط وحين تكثر الغارات.. لقد كانت أجوبتهم كلها ضرباً من التخمين، لأن أحداً لا يعرف على التحقيق من هو حواش، أو لماذا سميت هذه الأرض باسمه، ومع ذلك فإن «حواش» حقيقة كبرى في حياتي وفي حياة العشيرة كلها.

ففي حواش كان الأقارب من عربنا يتجمعون في الصيف حين تخصب الذُرة والبِطيخ، وها هنا يتجمعون ليالي الشتاء في ذُرا الكُثبان والأحقاف، يستدفئون بالحطب الكثير، وها هنا يتجمعون ليالي الخوف والخطر، بعيداً عن طرق السيارات، ودوريات الدولة ولصوص القبائل.. قريباً من هذه «العوسجة» ضربني ابن عمي سلمان، وحملتني أمي على الجمل.. وهز أبي رأسه أسفاً، لأن جسمي الضعيف لم يقو على احتمال العصا الغليظة، وفوقَ هذه الذرعان كم تسابقنا، وهذه الكثبان كم تدحرجنا معاً فوقها، وهنا في مراح الإبل كنا نصيد العصافير، إني لا أسمع لها حس. هل هاجرت؟... وهناك تزوج فلان، واحتفل العرب بطهور الأولاد.. الزغاريد، والغناء وتناخي الرجال وهم يتسابقون على الخيل والهجن كأني أسمعها الآن... وفي تلك الساحة كانت بيوت الشعر كالغمامة السوداء، وإلى الشرق منها كان الشباب ينصبون الدحية، ويتناقلون (البدع) حتى صياح الديكة، وعلى تلك «العلوة»، كان ينصب العريش الذي يتجمع تحته الرجال في الصيف، كأني أراهم يلهثون تحت حمل البطيخ الذي يرمونه في ظل العريش للضيوف..!

كنا نتحرك في صمت، لقد انشغل كل واحد بأفكاره، فلكل ذكرياته وحصته من هذه الأرض، يود أن يتلمَّسها، ولقد مر علينا إحساس مشترك بالرغبة في النوم، لقد كان علينا فقط أن نفج الرمل قرموصاً لتغفو في حضن الكثيب لا والله ولا فنادق الدرجة الأولى نعومة ودفئاً، ومن بعيد ينفجر في السكون صوت سيارة من الشرق، ربما قريباً من الخلصة، فنمشي نحو موقع البيادر، في «النقع» من تحتنا، فتنحدر مع حقف حواش... «بوص» الذرة أو سيقانها وهشيم الأعشاب يتكسر تحت أقدامنا، ونحن نحدّ النظر إلى أكوام سوداء، هي براميل الأسفلت الفارغة التي كنا نصفّي فيها الماء، من حول «الصنوع» تلك الحفر الكبيرة التي يتجمع فيها ماء المطر من القاع المجاور، كان كل شيء على حاله: رائحة الطين مع الماء الآسن، وبقايا الأسفلت، وتتحرك نسمة ريح، فتتحرك معها أصوات حزينة من البراميل الفارغة كأنها «شبابة» هائلة تغني في شبه عُواء أغاني الكارثة!!

ونمضي مع سفح الحقف إلى الجنوب الشرقي، ثم ارتفعنا إلى الذراع الذي يحد نقع الدبة من الشمال، ومشينا نتطلع إلى الجنوب.

كان في الدبة «سيالة» يرتفع جِذْعها ثم تنتشر فروعها وتتشابك لتشكل مظلة ظليلة يأوي إليها الرعاة، أو المسافرون القادمون من الساحل إلى الجنوب، حيث تمر الدرب السلطاني على بعد خطوات إلى الشرق من «السيالة»، وكان قريباً من هذه الشجرة بئر أثري، يقول البعض: إنه لتجميع الماء الذي يسيل مع هذا القاع، ويقول البعض: إنه بئر ينبع الماء في أعماقه ولكن الرمال السافية دفنته مع تطاول السنين، ولم يعمل أحد من هؤلاء البدو على إعادة حفره

وتفريغه من هذه الرمال، بل إن أحداً لم يفكر في ذلك، لأن هناك قصة أخذت مجرى التصديق والتسليم المطلق بأن هذا البئر «مسكون»، وأن أرواحاً تَطِيف به، ستأخذ كل من يجرُؤ على العبث به أو كشف أسراره، ويتناقلون قصصاً عن أفراد حاولوا ذلك، فرأوا أحلاماً فظيعة تأخذ بخُنّاقهم في الليل، ورأوا العزيز من أولادهم وإبلهم يموت أو تصيبه مصيبة، وتكبر هذه القصص التي كنت أحاول نفيها للبدو وتفنيدها باعتبارها مجرد خرافات، وكنت أحاول أن أستنهض الهمم لحفر هذا البئر، فيتحمس البعض ويسكت البعض، ثم يهمد الحماس ونعود جميعاً إلى السكوت. . . ولقد فررنا من المنطقة وفي أعماقي إحساس بالقصور أني لم أقم باكتشاف بئر الدبة، الذي طالما تفرَّسْتُ في جدرانه التي لم تغطيها الرمال، وهي في طول متر أو أكثر قليلاً.

كانت فوهة البئر مربعة، وكانت الجدران متينة، أو مطلية بمادة زهرية خشنة، أو بأحجار متداخلة لا نرى لها حافات أو حدوداً، وكنا ندُقّها بالحجارة وبالحديد، فلا يفعل فيها شيئاً، كانت تدُل على قدرة عجيبة لأولئك الذين قاموا ببنائها، وكانت أحجار تتناثر هنا وهناك قريباً من البئر، حجارة لا ندري كيف وصلت إلى هذا المكان المدفون والمحاصر بالكثبان الرملية، كنت أتخيل أن هذا الرمل الزاحف بإصرار وبطء يدفن آثاراً لأمم جبارة، كانت تسكن هذه المنطقة لا تبدو منها الآن إلا هذه الحجارة المتناثرة، وهذا البئر الذي ما زال يستعصي على عاديات الزمان.

لقد تلفَّتُّ نحو «السيالة»، كان ظل الحقف المقابل يحجب قطاعاً من نور القمر، ليغطي شريحة من الأرض من تحته، وكانت

السيالة كأنما تزحَف من تحت الظل لتتجلى أمامنا . . . كانت الحجارة على حالها ، ودِمْنة البئر . . . والخِرَق الكثيرة التي يعلقها المارّون للتبرّك والذكرى تنتفض مع الريح من تحت السيالة . . . وفجأة «أس . . . س» يقولها واحد من الصحب ، وتتسارع الأنفاس ، وتعلو دقات القلب ، ونلبس الأرض في حركة تلقائية سريعة ، وكل واحد يزحف إلى ساتر قريب .

كان المنظر القديم المؤلف من السيالة والحجارة ودمنة البئر ، قد أضيف له معلَم آخر من كتل سوداء كبيرة لم نكن نعرف عنها شيئاً .

وانطلق أخي سلامة في مثل ختل الذئب نحو تلك الكتل ، وبعد قليل أطلق صفيراً خافتاً ، وخبط بيده على الأرض في إشارة عرفنا أنه يدعونا للتقدم .

كانت الكتل هي إبلنا التي نسعى وراءها ، كانت ساكنة ممددة الأعناق كأنما تتشمس في مراغة .

لقد أحسست بقشعريرة تجتاح جسمي ، وأنا أسترجع القصص التي تروى عن هذا المكان ، والأرواح التي تطيف به ، لا بد أن أرواح قطيعنا قد انضمت إليها ، ووقفت على طولي وقد مات الخوف في نفسي ، وأنا أتقدم إلى الفاطر «نسلة» لأتحسس ذلك الجسم الذي كان يمثل لنا أمّاً إضافية في التغذي على حليبها ، ووجدتني دون وعي أملأ قبضتي من وبرها!

في لحظات تراجعنا إلى الوراء نحو «العلوة» التي يرتكز عليها الحقف إلى الغرب ، وينكشف الظل رويداً رويداً عن مسرح الموت وتجمع الأرواح ، وقرفصنا هنيهة نتابع المنظر من جديد ، لم تكن هناك آثار

عجلات على الرمل، لا بد أنها الطائرات.. استفردت بهذه العجماوات تضربها بالرصاص وربما بالقنابل، ولكن العجماوات صمدت، إلى أن لقيت مصرعها على الأرض التي نبتت فيها، لتتحد إلى الأبد مع تراب هذه الأرض التي أنبتت لها غذاءها، فهي ترد إلى الأرض كل ما أخذته منها، ترد أمانتها بعد سفر مجهد طويل!

عواء ابن آوى يقطع الصمت يرد على نباح كلب بعيد، و الجرذان واليرابيع تطارد بعضها بعضاً في صراع لا ينتهي، وطير كبير أرهبنا لا يكاد يتحرك ربما ينتظر الوليمة الكبيرة ليقود إليها سربه، وفجأة يصدمنا الرعب والهم معاً، ماذا حدث لسليمان؟ ماذا لو صادفه قتلة البعارين قريباً منها؟ هل رأى الذي رأيناه؟.. وفي سرعة توزعنا نقص الأرض المحيطة نفتش عن آثار أقدامه..

«جاي»! قالها ابن عمي، فهرولنا نحوه، وإذا بآثار أقدامه، وكعب البندقية بجوارها، واقفاً، أكبر الظن أنه كان يتملّى من المنظر الذي تملّيناه، وتفحصنا التراب الرخو من حولنا وإذا بآثار عودته يفج الأرض مسرعاً... وتنفسنا. لقد أشوت المصيبة!!

ومشينا لم نتذكر المخازن القريبة، لم نعرج على «صيرتنا» أو «صيرة» أحد الأعمام المزودة بالطعام والماء مدفوناً تحت الرمل، لم تحركنا الذكريات التي تعرض نفسها وتعلن عن وجودها مع طلعة الشجر، وحسيس التراب، وانكسار ظل القمر، مع رائحة المواقد التي تدهم أنوفنا، لتذكر بالذي كان.

كان الفجر يزحف من الشرق، ليكشف لنا تلال «القرن» ومن ورائها إلى الشمال الشرقي والجنوب الشرقي جبال الخليل وحفير،

قريبة بئر السبع بين مثلث الأودية والجبال، قريبة لنا نصل إليها في ساعات، ولكنها اليوم بعيدة جدّاً، ونحن نهم في المشي لنزداد عنها بعداً.. كأنها لم تكن يوماً ملتقى الأحبة، ومجمع الخِلّان!

كان «عودة» في الانتظار، أكبر الظن أنه لم ينم بعدنا، كنت أشرب الماء وأحس أنه غليظ ما يكاد ينزل في حلقي، وحين تقيأت ما شربت أحسست أنه قد اتسع صدري وكانت جرعة الشاي الأسود بعدها هي العلاج الحاسم لتلك «الدوخة» التي غشيتني في تلك اللحظات.

لم يفاجأ «عودة» بأخبار «نسلة» حتى كدت أشك أنه على علم سابق بما حدث لها، فمطاردة الجمال وقتل الغنم في تلك المنطقة كانت مألوفة «لعودة»، وهو يحمد الله أن لم يكن معها أحد يرعاها ليُلحقه أولئك الكفار بها.

كان عودة يقدر أن نباح كلبه أول الليل كان على سليمان، وهو الآن لا بد وأن يكون في رفَّة البيت، أو في قبَّة العرس، فلا علينا ألّا نستريح عنده.. ولكن ذلك كان حافزاً لنا على التحرك الفوري نحو الأهل...!

حين هبطنا وادي الأزرق كانت الريح قد بدأت تنسِّم من الغرب، وحين قطعنا العدوة المقابلة من الوادي كانت الأشجار تهتز بشدة أكثر، أدركنا معها أننا أمام عاصفة رملية، أو ما نسميه في بلادنا «عجة» من تلك التي تثور عادة في فصل الخريف.

واشتدت الريح، وبدأت حبات الرمل ترتفع لتغطي شعاع الشمس الذي بدأ يرتفع من الشرق، وغميت علينا الطريق، لا

نتعرف عليها إلا من الروث والبعر، بقايا مسيرة الحلال عبر السنين يهتز مع الريح في حلقات.. «كباقي الوشم» في ظاهر الذراع البيضاء!!

كنت أنا خيّال الفرس، وكان رفاقي يمسكون بشراشب الخُرج، والفرس ترخي رأسها وربما تغمض عيونها لتتفادى سفو الرمال، ولكنها وقفت في النهاية لا تستطيع حراكاً، فأخذنا بالزمام في صراع مع حركة الطبيعة التي يبدو أنها تعيد خلط الأشياء على سطح صحرائنا، وجلسنا قليلاً في ذرا شجرة كبيرة تستند على كتف ذراع من الأرض، و «الكبيشة» فرسنا، تنثر التراب الذي تجمع في خياشيمها حتى إذا خيل لنا أن العاصفة هدأت قليلاً تابعنا المسير!

البدو في مثل هذه العاصفة يرخون حبال بيوت الشعر، وينزلون الأعمدة قليلاً حتى لا تتمزق أو تتهدم على رؤوس من فيها.. وكانت «الكبيشة» أسرعنا ونحن نهرول نحو الذرا، وكان الأهل أشد منا لهفة على اللقاء!

أين سليمان..؟، ولكنهم يسألوننا «أين سليمان» كذلك قلنا لهم: لقد رأينا أثره وهو في طريق العودة، وقلنا لهم: إنه كان يجب أن يكون قد سبقنا إليكم!

تلفَّت أبي وهو يقول: هدأت العاصفة فتشوا عن سليمان... وانفض الناس في شبه هرولة خارج البيت، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى عادوا ومعهم سليمان.

* * *

كان قد وصل إلى الوادي حيث يحس بالأمن، فاحتضن بندقيته ونام، فلما استيقظ بدأ في صراعه مع العاصفة، وحين أقبل مع الرجال كان يتوكأ على البندقية كأنه نسي الخوف من «الدولة» بعد أن رفض أن يعطيها لأحد حتى جلس بيننا، كان الإعياء قد بلغ منه النهاية، وكانت شفتاه يابستان، ولسانه لا يكاد يَبِين من خلال صوته المبحوح.. وحين قذف الماء الذي شربه، كأنني رأيت فيه خيوطاً رفيعة من دماء.

حين غلى «الشيح» الذي أحضرناه من «صيدلية» أمي، كان سليمان قد ذهب في سبات عميق.

كعادتهم مع العريس حين يخرج من «البرزة» لم يتنازع القوم على قراه، ولم يعط أحداً من أخباره شيئاً، فظللنا ننتظر ولكنه فجأة بدأ يهذي.

«اليهود والناقة والبعارين.. البارود الرصاص، والطائرات.. عندك يا «خطيب»!! كأنما يستغيث بي، فأقف ثم يئن طويلاً.. آه.. قتلني اليهود!

كان واضحاً أن كل أعشاب الصحراء لا تكفي لعلاج أخي، فجهزنا له مركباً مريحاً حتى طريق الإسفلت، لننقله بعد ذلك إلى السيارة.

كنت ألحُّ على الطبيب في العريش... أريد الشفاء لأخي بأي ثمن... الدراهم لا تهم، فيكتب له الدواء النادر في ذلك الوقت «كلورومايستين» هكذا على التخمين دون تصوير أو فحوص مخبرية، ولكن حالة أخي تسوء إلى الحد الذي ندمنا معه على المجيء

للمدينة ، وعلى تركنا لطب الصحراء . . ويزداد هذيان أخي ، لم نعد نفهم منه أو يسمع منا ، وكلنا نتحد معه حين يصل هذاينه إلى المعركة والبارود والطائرات والناقة . . . !!

ثم يعود لأنّته الطويلة . . آه قتلني اليهود ، وبدا أن أخي قد هدأ تحت الغطاء ، وابتعد البعض حتى لا يزعج غفوته . . . ولم نكن ندري أنها الغفوة التي انتقل بها عنا إلى البعيد . . البعيد!

* * *

حين وصل ظعن سليمان إلى المقبرة ، وبرك الجمل ، وقبل أن يلقوه في حفرته ، تحرك في ذاكرتي في مثل لمع البرق شريط أُخُوَّتنَا . . وهكذا يمضي «كأنما لم نبت ليلة معاً! فإذا بالثقل على صدري . . . وتنبهت والناس يحملونني وهم يقولون : مسكين قلبه ضعيف!

والسؤال يلح علي ، ويلح : من قتل أخي . . الطبيب أم الناقة ، أم اليهود . . !؟

وأحاول أن أنقل نفسي من ذلك الجو بتلاوة آيات من القرآن ، وأتلو ما حفظته عن السلف من أحاديث الموت . . وخالي يتفرس في وجهي في هدوء وهو يقول : النار سوف تأكل ، وتأكل فلا تحمل نفسك يا فلان . . إنها البداية!

كنا بعد أيام نتحرك على الطريق بين بئر السبع والمراكز اليهودية من حولها ، نحاول ـ أن نستطلع مخازن الحبوب والمزارع في ديارنا في قصة أخرى ليس هذا أوانها ـ كنت أحس أنني في الحد الفاصل بين الموت والحياة ، بل كنت أحس أني كنت أقرب إلى هناك ، عند أخي!

حين عدنا لم يكن الرجال على عادتهم من حول النار وبكارج القهوة . . وحتى النساء ليس لهن حس . . ونسأل ، قالوا : لقد ذهبوا يودعون العروس ، عروس سليمان ، لقد لحقت بزوجها!!

صديقي سالم والأوراق الثبوتية

كان قصيراً ونحيفاً ضاوي الجسد، بمظهر لا يصلح للجندية، فضلاً عن المهمات الشاقة والخاصة، ولكن هذا الجسم الذي تتخطاه العين، كان كأنما صيغ من حبال الفولاذ، بالإرادة والصبر والجرأة، فكان يمشي، فلا تعرف أعضاؤه التّعب، ويقاتل فلا يخشى قلبه الموت، ويتحرك وسط أطباق الظلام، كأنه في رائعة النهار..!

كان أهله يعيشون قريباً من عدوة الوادي الشرقية غربي بئر السبع، ذلك الوادي الذي يستقبل السيول القادمة من سفوح الجبال الشرقية البعيدة، ليسلمها إلى البحر جنوبي غزة، ويفصل في نفس الوقت الأرض الصلبة عن الرمال الغربية التي تتحرك بإصرار نحو السفوح في كل ساعات الليل والنهار!

* * *

لقد عرفت «سالم» في موقع «الشريف» إلى الشمال من «عسلوج»، حيث يعسكر بعض المتطوعين هناك، لحماية الطريق المعبدة: بئر السبع ـ عسلوج ـ العوجا ـ الإسماعيلية، ومراقبة المستعمرات القريبة التي يتحصّن داخلها جنود البالماخ، فكان «سالم» هو المتطوع بإلحاح إلى المهمات الصعبة، التي تصل به أحياناً إلى داخل المستعمرات، والتنصت إلى همس اليهود، رغم أنه لا يفهم العبرية، وضربهم إذا دعت الضرورة، وكم مرة تسبب في معارك تختلط فيها طلقات البنادق بانفجارات القنابل، في قلب تلك

المستعمرات ، وينسل من بينهم كالشبح ، ليصلنا ونحن في الغالب نترحم عليه ونتلاوم على المجازفة بحياته!!

وكان «سالم» هذا الشاب الفولاذي الإرادة ، والجريء الفؤاد ، يتميز بصفة أخرى ، غير الجرأة والصلابة ، كان الشاب عاشقاً ، يخفق قلبه بالحب ، حتى لتحس من حديثه عنه أن تلك الصفات الفولاذية التي عرف بها لم تكن إلا ثمرة الإغراق في إرضاء المحبوب بالتفوق على الجسيم والوسيم من الرجال!

* * *

لقد نما مع ابنة عمه ، أطفالاً يتسابقون أمام مضارب البيوت ، ويتشاركون في التقاط السنابل وراء الحصادين ، ويتعاركون في مراح الإبل ، ومرابض الغنم ، ويتعاونون في رعاية الحملان التي لم تفطم بعد ، ويلتقطون حب «القلّيه» سوية من التراب كالعصافير. . . ويمثلان مسرحية الأب والأم معاً أيضاً ، ويكبر وتكبر هي مع كل ربيع ، مع الغنم والشجر والجمال التي يعلو سنامها ، وحين أدركا ما يمكن أن يكون بين الذكر والأنثى ، كانت الروح قد امتزجت بالروح ، وهنا يتدخل العم والوالد ، فتبدأ الرقابة والفصل الذي أشعل النار في قلب المحبين الصغيرين!

ولو قد تراجع الزمن بالعم «سويلم» إلى عصر الجاهلية الأولى ، لكان من أشد المتحمسين لوأد البنات ، فالحب عنده مرادف للانحراف والفسق ، وخلوة البنت بالولد ، حتى ولو كان مع أقرب الناس ، هو الطّامة الكبرى على رأس كل منهما على حدة ، وليس هذا لأنه يكره ابن اخيه ، أو لا يحب ابنته ، وإنما هي نظرته الخاصة

بتحريم كل علاقة قبل الزواج، مهما كانت بريئة ونظيفة وصادقة. حتى إذا بلغا الحلم كان هو بالمرصاد ليحكم ويراقب عملية الفصل بينهما، ليبدآ معاً مرحلة الحب الذي تطور على صورة يتكرر بها تمثيل دور قيس وليلى، وتقاليد بني عذرة!

كان بيت الشعر الذي يأوي إليه كل منهما، على الرغم من أنهما في «فريق» واحد، أو «عرب» واحدة ـ يبعد عن الآخر مالا يقل عن نصف كيلومتر، على عادة أولئك البدو في «النزيل»، وهي مسافة لا تترك للعين الرؤيا الواضحة لممارسة حديث العيون ومغافلة الرقباء، فكانت هي أو هو يحرصان على أن يخط الواحد منهما برجله على الرمل في أقرب مسافة يدنو فيها من بيت الآخر، وكان يلوّح بعباءته، أو تلوح بقناعها إذا تقاربت المسافة بينهما، حين يمضيان وراء السرح، وكانت أفضل اللحظات تلك التي يختلسانها للقاء أثناء هبوب الريح التي تثير التراب و «العجاج»، وتمحو من الأرض آثارهما محواً، لأنهما يكونان في مأمن من اكتشاف الأب والعم لآثارهما متلبسة بالتقارب أو بالالتقاء والجلوس معاً، في أحد حنايا الكثبان أو زوايا الأودية!

كانت عملية إنشاء المستعمرة اليهودية القريبة من الديرة هي بداية التحسس للمشكلة بالنسبة لسالم وأهله، من أول أحاديث السمسرة، وبيع الأرض بعد ذلك، والأسلاك الشائكة التي أحاطت بهذه الأرض، إلى أن ارتفعت الأكشاك داخل الأسلاك، وبدأ الغرباء بملابسهم وهيئاتهم المختلفة يعمّرون تلك الأكشاك، ويحرثون الأرض داخل السياج الكبير. . . من تلك الأرض «المسجونة» أو المسيجة، وأولئك الناس الغرباء، بدأت قصص اليهود وفلسطين

والأرض والعدوان عليها تنتشر بين القوم ، وعلى لسان عم سالم وأبيه عن الثمن الكبير الذي قيل : إنه دفع للأرض ، بواسطة الشيخ مختار العشيرة ، والدراهم المخزونة في تلك الأكشاك ، الجاهزة لشراء بقية الأراضي . . . «يعطونا ورق ويأخذوا الوطن» هكذا كان البدو يقولون ، وكانوا يتناقلون مع هذا القول قصص الشمال الكثيرة ، وقصص المقاتلين الذين خرجوا على هذه الدولة الكافرة ، والتي تعطي اليهود أرض فلسطين «الخصاب» . . . في الشمال ، حتى وصلوا إلى البادية هنا شرقي «الخلصة» ، وغربي «عسلوج» ، في القطاع الجنوبي من «بئر السبع»!

كانت الرؤيا واضحة ، والجو مكشوفاً بالنسبة «للعرب» عندما جاءت أخبار قرار التقسيم ، ورفض العرب له ، وكان المناخ مناسباً تماماً لسالم أن يستعد لمواجهة المستقبل ، وكان الاستعداد يعني الحصول على السلاح ، وكان السلاح في ذلك الحين يتمركز بين أنياب السباع ، ولكن «سالم» تمكّن من جمع المبلغ اللازم ليتسلل به إلى الغرب على مشارف مصر في سيناء حيث مظنة الحصول على ذلك السلاح . . !

ولقد ابتسم الحظ لسالم ، يوم وقع على تلك البندقية التي اشتراها دون مساومة تذكر مع «المقلد» الذي يحوي خمسين طلقة ، وحين رجع بتلك البندقية التي يصل طولها إلى كتفه ، انطلقت الزغاريد و «شخب» دم الذبيحة «النذر» على هذا التوفيق الإلهي بعودة سالم سالماً وغانماً في آن واحد!!

ولقد كان المناخ ملائماً تماماً لسالم ، لكي يعبر عن ذاته ، ويؤكد

رجولته لأبيه وعمه ، وللمحبوبة من قبل ومن بعد ، وذلك بالإنضمام إلى مجموعات المناضلين ، التي تتجمع تلقائياً هنا وهناك ، فكان لقاؤه مع بعض أفراد جماعتنا في تلال «الشريف» شمالي «عسلوج» ، تلك الجماعات التي تتألف من جبهة شباب بئر السبع ومن بعض المتطوعين المصريين والليبيين الذين سبقوا دخول الجيوش إلى فلسطين .

لقد تحولت معرفتي بسالم إلى صداقة توطدت مع الزمن ، فكنت موضع سره ، ومستشاره ، وحين أسر لي عن رغبته في أن أفاتح عمه في خطبة ابنته ، استخدمت كل ما عندي من قوة الإقناع ، في تأكيد أن الظرف والمناخ لا يناسبان أبداً هذه الخطبة ، وأن الحب كله والجهد كله ، يجب أن يوجه الآن إلى وطننا المهدد : «ومن يدري يا سالم أننا سنعيش الليلة أو حتى الأسبوع القادم ، لكي نقيم لك الفرح ، ونفرح معك»! وقلت له : «أنا واثق أن عمك يدّخرك الآن للمهمة الأكبر ، للدفاع عن الأرض ، وستظل ابنة العم تنتظرك ، يوم نفرح الفرح الأكبر بزوال هذا الكابوس الذي يضغط على صدورنا الآن»!

وبدا أن صديقي قد اقتنع ، فلم يعد يفاتحني في ذلك الموضوع أو حتى يلمّح إليه ، لقد كان شغله في بندقيته ، ينظفها ويحتضنها ، وكان تركيزه على أذنه حين تدور عليه الحراسة في الليل ، يتسمع إلى كل حركة من صرير الجنادب وحتى نباح الكلاب البعيد ، وكان همّه الدائم في تلك الأكشاك والاستحكامات المسيجة بالأسلاك ، والتي عرف فيما بعد أنها مسيجة بالألغام أيضاً . . . !

لقد مضت تلك الفترة على سالم وعلينا، كالحلم المزعج، كقنبلة الصوت، كالطلقة الفاسدة، لقد مضت، دون أن نستثمر منها جميعاً إلا التّعب، بعدما دخل الجيش المصري، ووصل إلى بئر السبع، وكانت أوامره الأولية تقضي بتسليم السلاح، من جميع المناضلين، لقد مضت تلك الفترة عليه وعلينا، ولفّ سالم بندقيته في كيس من القماش المشمّع السميك يحفظها من الغبار والرمل، وأخذ يراقب أفراد الجيش المدججين بالسلاح، وهو لا يشك أبداً في أن تلك المستعمرات كانت تحصي في أيامها الأخيرة، وأصبح «سالم» لا يفكّر إلا في الكسب، إلا في الغنيمة الكبيرة التي يتصور أنها داخل تلك الأكشاك والمخازن والتحصينات حين تكتسحها الجيوش، ولقد قعد سالم على مثل النار يترقب وينتظر، ولقد طال به الترقب والانتظار، حتى كانت تلك الليلة التي لم تبرح خياله قط!

* * *

كانت السماء صافية والنجوم تتلألأ «وبنات نعش» في وسط السماء، كان الصمت الثقيل يطبق على تلك الأرض الرخوة، حتى الجنادب والكلاب كأنها قد غفت هي الأخرى مع هذا الكون. . . وفجأة يتمزق هذا الصمت، ينسف مرة واحدة بانفجار كأنه من تحت «سالم» لشدة قربه منه، وكأن ذلك الانفجار، هو كلمة السر، هو البداية، التي أخذت الانفجارات تعلو بعدها وتكبر، وتضيء الليل، وتشارك نجوم السماء بأضواء تهز أطباق الظلام على الأرض. . ولقد كان «سالم» قادراً على تحديد مواقع الانفجارات ودفقات الرصاص المتواصل، لولا أن رأسه قد «انفتل» كما يقول هو، فلم يكن في ذهنه مكان آخر لمثل تلك النيران إلا تلك المستعمرة

التي تمثل هاجسه الدائم في كل ساعات الليل والنهار. . فتحسس بندقيته و «زهابه» واتجه نحوها في مثل حركة السهم. . ووصل إلى السياج وحتى إلى التحصينات، وتلفت يمنة ويسرة ولكنه لم يجد شيئاً ثميناً من تلك التي يمني نفسه بها من البنادق والرصاص، ولم يجد أحداً ليشارك في الإجهاز عليه، وحتى الكلاب التي تنبح عادة داخل المستعمرة يبدو أن «الجيش» قد قضى عليها. . . ولكن الرصاص والقنابل ما زالت تتفجر إلى الشرق رغم أن حدتها قد خفت. . لماذا الرصاص هناك والسكوت هنا. . . في اللحظات الأولى، لم يستوعب عقل سالم شيئاً، ولم يعرف لذلك تفسيراً، ولكنه لم يكن يشك قط أن أهل المستعمرة وكلابها قد قضي عليهم مرة واحدة. . وبحركة تلقائية اتجه سالم إلى حيث الرصاص ما يزال يفرقع إلى الشرق، وإن كان خائفاً يترقب لئلا يمسك به الجيش العربي وهو حامل للبندقية، ظل يتجه إلى الشرق متسربلاً بما بقي في الليل من ظلام، وحين وصل إلى التل المشرف على «عسلوج» التف في شجرة من تلك الشجيرات البرية المتناثرة، وأخذ يراقب ذلك الذي يحدث هناك!

لم يكد سالم يصدق نفسه، هل كل هذا الضرب في ساحة «عسلوج». . . ما الذي يمكن أن يحدث؟ ولماذا وكيف سكتت الإنفجارات الآن؟. . . لقد بدأ الخوف الغامض يتسرب إلى نفس سالم. . . وفجأة تلتقط أذنه كلاماً كالذي كان يسمعه في المستعمرة، وفجأة رأى سالم أفراداً من الناس لم يكد يتبين هيئاتهم، يتراكضون إلى الشمال والشرق. . بل لقد زاد ارتفاع وكثرة اللهجات الغريبة في الساحة من تحته، وبدا أن الرجل غير قادر على الفهم، هل

يمكن . . . أن يكون ذلك؟ ، هل يمكن أن يكون سكان المستعمرة هم الذين هاجموا «عسلوج» ، هل يمكن أن يكون خلو المستعمرة من الناس لأنهم كانوا يحاربون هنا . . ثم هل يقدرون . . . !؟

لقد كان سالم يخاف الصباح الذي بدأ يكشف الأشياء من الشرق ، ولقد أحاط الرعب بسالم حين تبينت له الحقيقة أو بعضها ، وانطلق يجري كبقية الناس على غير هدى ، دون أن يهتم بإخفاء بندقيته ، لقد ظل سالم يجري وقد تجمد تفكيره ، وتسمر الرعب في أعماقه . . . والأسئلة يتوالى دورانها على رأسه ، كيف يجرؤ هؤلاء الذين جربهم هو ، وجرّب كيف يخيفهم وحده عندما يدخل عليهم الأسلاك كيف يجرأون ، وكيف يقدرون على هؤلاء الجنود المدججين بالسلاح . . . والمدافع . . يا لله ما الذي حدث!؟ كيف . . . كيف!؟

حين أقبل على البيت كانت الغنم والأباعر تتمطى من نومها الطويل ، وقد تلقاه أبوه يلومه ويسأله ، وهو يتكوّم متهالكاً على الأرض كأنه بعض متاع البيت ، وقد امتص العرق كل ما في جسمه من سوائل ، وعقدت المفاجأة لسانه ، ونسفت من عقله كل ما فيه من مسلّمات عن اليهود الجبناء أولاد الميتة . . . وأحس هو بهاجس غامض ، أنهم ـ أي اليهود ـ لا بد سيتفرغون له ولعربه مباشرة بعد «عسلوج»!

لقد تجمعت العائلة كلها في «رفة» بيت واحد ، عمه وأبوه وبقية أقربائهم وجيرانهم ، واختلط الحابل بالنابل ، وكان واضحاً أن «سليمة» ـ وهذا هو اسم المحبوبة ـ لم تعد في حاجة لأن تعزل نفسها ، أو حتى في أن تتحفظ من رؤية سالم وإلقاء التحية عليه ، لقد

كانت حالة الطوارىء تلك التي فرضت على عرب «سالم» تباح فيها المحذورات في أيام الطمأنينة والاسترخاء، وكان الموضوع الوحيد المطروح «على بساط البحث» هو ما الذي حدث!؟

لقد كان أولئك البدو البسطاء يضربون أخماساً في أسداس، ويقلّبون الأمر على وجوهه، ولكنهم في كل مرة لا يخرجون بنتيجة يطمئنون إليها... ويتخذون قرارهم بناء على ذلك!

وفي كل مرة يصلون إلى بحث موضوع الجيش، والمتطوعين الكثيرين معه، يرفضون القبول بأن مثل هذا الجيش يمكن أن يهزم من هؤلاء الذين يسكنون المستعمرة، وحتى لو جاء لهم الرديف أضعافاً، فهم قد شاهدوا الجندي من هذا الجيش وهو يسير مدججاً بسلاحه، والقنابل اليدوية معلقة في حزامه، «والسنجة» تتدلى أيضاً من هذا الحزام، والبندقية، هي أمنية الأماني بالنسبة لكل «بواردي» من هؤلاء الذين يتحاورون في «رفة» بيت سويلم!، أما السيارات التي تتخفى في الشجر، أما المدافع التي تجرها، فتلك قوة، لا يستطيع تفكير البدوي أن يصل إليها، أو أن يحكم عليها!، أمثل هذا الجيش يقدر عليه هؤلاء الذين استطاع سالم أن يثير الرعب فيهم جميعاً أكثر من مرة...؟!

وفجأة يرتفع صوت فوق خليط الأصوات المتحاورة بدون ضوابط ولا نظام ليقول: «والله إني خايف أنهم باعوكم!؟» وارتدت عليه جميع الأصوات تخرسه، بإجماع واضح، «حرام عليك، المسلم يبيع المسلم، هذا الجيش جاي يدافع عنك، وأنت تقول هذا الكلام!؟»، ومع ذلك فإن هذا الصوت النشاز يترك أثره الخفي في أعماق النفوس، لينضم إلى المعميات التي لا يجدون عليها جواباً،

وكانت تلك المجموعة التي يجري الحوار بين أفرادها لتفسير ما جرى في «عسلوج» تتهرب من مواجهة مجرد احتمال أن اليهود قادرون على هزيمة الجيش، ولعلهم في أعماقهم يفضلون تفسير ما حدث «بصفقة بيع وشراء»، على أن يتخيلوا أن اليهود هم الغالبون، لأن معنى ذلك أنهم وقد غلبوا هذه القوة الكبيرة هم ولا شك أقوى وأقدر على غلبتهم هم، وهم لا يحملون إلا هذه البنادق التي أكلها الصدأ، وهذا «الزهاب» القديم الذي قد لا ينجد صاحبه إذا وقعت الواقعة!

ومال الجميع في النهاية إلى التفسير الذي يقول: بأن الجيش هو الذي استدرج سكان المستعمرة من أوكارهم وحصونهم، إلى ساحة «عسلوج» المكشوفة، و «تشارد» لهم، أي: إنه تصنع الهزيمة والهروب، لينقض عليهم بعد ذلك، فلا يبقي منهم بعدها «دياراً أو نافخ نار»!، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد لهم أن يبتعدوا قليلاً لكي لا تدوسهم المصفحات والدبابات وتأكلهم القنابل التي لا بد وأن تحرق الأخضر واليابس، عندما يحين حين هؤلاء اليهود الذين يظنون أن أخذ «عسلوج» من الجيش هو «أكلة زلابية»!!

لقد نادى منادي الرحيل، وجيء بالإبل السارحة لحمل الأثقال، وكان الاتجاه إلى الجنوب الغربي حيث «الريضان»، والأودية التي تحف بجبل «القرن» من الشرق، وكان عليهم أن يجتازوا الوادي جنوباً، ليختاروا المنزل المناسب للظرف الطارىء، والذي لا يجب أن يبعد كثيراً عن المخازن التي تضم مؤونتهم ومؤونة الدواب معاً. . وأما الماء فلم يفكروا في توفيره كثيراً، لأن هناك أكثر من «هرابة» لجمع ماء الشتاء، بالإضافة إلى «الخلصة» التي لا تبعد كثيراً عن المنزل المقترح!

* * *

كان «سالم» هو الطليعة ورائد المنزل الجديد، وكان الأقدر على التحرك وملاحقة الأخبار، وكان بما تيسر له من تدريب بسيط الأقدر أيضاً على معرفة أنواع الأسلحة وأصناف الآليات التي قد يراها البدو، أو يرقبونها وهم في داخل الشجر، تمر من بعيد، وكان الأقدر في نفس الوقت على التفريق بين السيارة المصرية والسيارة اليهودية، «لقد أعطت الظروف الحرجة لسالم» درجة أعلى في أعين قومه، وأعطته المعرفة قدرة على التصرف والحكم على الأشياء، لم يتوفر لواحد منهم، بمن فيهم عمه وأبوه، وكان ذلك كافياً، لأن يملأ صدر «سليمة» فخراً وزهواً بين البنات، اللواتي طالما لمنها في حب ذلك القزم الصغير! وكان ذلك كافياً لأن يحس عمه نحوه بتقدير إضافي جعله يناديه للمشاركة في تحميل الإبل، وفي قيادة القافلة، وفي «دبرة البال» على الظعن كله!!

لقد تغير تكتيك بناء بيوت الشعر، بما يتلاءم وحالة الحرب، لقد كانت كل عائلة تنزل في السابق بعيداً عن العائلة الأخرى، ولكنهم في حالة الطوارىء، أو حالة الحرب، ينزلون متقاربين، حتى يصل الأمر إلى ربط حبال البيوت بعضها في بعض وفي حالات أخرى، يختارون منازل البيوت منخفضة أو مرتفعة بعضها عن بعض طبقاً لطبيعة الأرض، ولعملية حماية البيوت، إذا ما تعرضت لأي هجوم! وهي حالة تتلاءم تماماً مع واقع المحبين: سالم وسليمة، ولكن الظرف ـ لسوء حظهم ـ لم يكن ظرف العواطف وتبادل الحسرات، لقد كان الأمر أكبر من «سالم» و «سليمة»، لقد كان الخطر يطل بآذانه على القبيلة كلها، وأول مراحل الخطر هو الانتقال من مزارع الجدود ومنازل الأهل، إلى هذا المكان المنعزل الوعر، مهما

كان قربه ، وعلى الرغم من أنهم لم يخرجوا من أرض العشيرة بعد! ، من أجل هذا ، فقد كان «سالم» في شغل دائم ، عن محبوبته ، في عمليات استطلاع مستمرة ، وملاحقة دائمة للأخبار ، التي يتناقلها البدو عن معارك الشمال ، وعن المدينة الكبيرة . . . بئر السبع!

* * *

لم يطل الوقت «بالعرب» الصغيرة في ذلك المكان من حضن جبل القرن ، ولقد تحملوا بعض المشقة في توفير الماء والعلف ، والحب الذي خلفوه في المخازن وراءهم ، وكان يمكن أن يتحملوا مزيداً من المشقة والعناء لو أن الأمور لم تظل على حالها . . .

ففي صبيحة يوم من الأيام ، وقد مضت أسابيع تجاوزت الثلاثة عدّاً ، واليهود في «عسلوج» ، ظَل دوي السيارات من الجنوب - يهز المنطقة ، ويتجاوب مع حنايا الأودية وسفوح التلال ، فتسلل سالم ليستطلع الخبر ، وحين أدرك أنها القوة العربية المصرية ومن معها من المتطوعين جاءت تزحف من الجنوب من «العوجا حفير» على «عسلوج» ، كان قوم سالم يحضّرون أنفسهم ، ويقرّبون جمالهم للعودة إلى المزارع والمخازن ، وفعلاً فقد نشبت المعركة ، تدل الانفجارات والرصاص الكثيف الذي يختلط به على أنها النهاية بالنسبة لأولئك المعتدين ، الذين لم يكفهم أن الناس قد قبلوا بهم تحت حراسة الإنجليز في مستعمرة «قاعة مقبولة» فحسب ، وإنما يريدون أن يأخذوا «عسلوج» من الجيش العربي أيضاً!

لم يشك قوم «سالم» في النتيجة الحتمية للمعركة الدائرة ، ولذلك فإنهم كانوا يستذكرون مناقشاتهم السابقة قبل رحيلهم ،

ويثنون على صاحب الرأي الذي يقول بأن الجيش العربي قد انسحب لهم ـ أي اليهود ـ من «عسلوج» ، ليستدرجهم إلى حتفهم بعد أن يخرجوا من تحصيناتهم وأوكارهم في المستعمرة ، وزاغ من وجه القوم ذلك الذي ألقى بتلك الكلمة النابية ، التي أثار بها الشك في عملية البيع والشراء . . . لقد زاغ الرجل وهو يأسف على ذلك الخاطر الشيطاني ، الذي جعله يظن أن المسلم يمكن أن يبيع المسلم ، حتى لهؤلاء الأعداء الغرباء!

لقد كان القوم في أحسن حال يتناوبون شرب القهوة ، ويستمعون إلى العم «سويلم» وهو يعلن أنه سيذبح نذر الشكر لله على نصر المسلمين تلك الليلة ، ولكن القدر كان يخبىء لأولئك الناس مفاجآت أخرى قد تكون أسوأ وأشد سواداً ، فقد طالت المعركة وطال ضرب المدافع وانفجار القنابل ، وجاءت الطلائع وفي مقدمتها «سالم» بغير ما كان ينتظر القوم في مجلسهم ذاك ، ذلك لأن سالماً بما له من تجربة في «القتال» ، يؤكد أن اليهود لا يزالون صامدين في أماكنهم ، وأن القنابل وحدها هي التي تصل إليهم ، دون أن يتحركوا من مواقعهم قيد أنملة ، ولكنه يقول . . . : إن المعركة لم تنته بعد ، غير أن هذا الكلام وحده كان له على رؤوس القوم وقع الصاعقة ، فلم يخطر على بالهم قط أن أحداً يمكن أن يقف أمام قوة الجيش التي رأوْها بأم أعينهم ، ومرة أخرى عادت الهواجس إلى نفوس الناس ، وعاد ذلك القلق والخوف الغامض يغشي قلوبهم ، بل ويهزها هزاً . . . وبالذات عندما جاء صباح اليوم الثاني والعدو واقف في مكانه!

لقد كانت صدمة جديدة وهائلة ، لتلك المجموعة التي تنتظر نتيجة المعركة ، ربما خفف منها وجود الجيش في مواقعه ، على الرغم من وجود اليهود في مواقعهم أيضاً . . وعلى الرغم من القصص الكثيرة التي تسربت من بعض الناس الذين شاركوا في المعركة ، والتي تومىء كلها إلى أن الجنود يجهلون طبيعة الأرض ، وطبيعة القتال فيها ، ويقولون : إنهم يتصورون أن كل السكان من حولهم أعداء وكانوا يظنون أن الشجيرات الصغيرة السوداء الكثيفة على الهضاب القريبة إنما هي هامات جنود يتحصنون في تلك الهضاب ، ويصل بهم الأمر إلى حد الشك في البدو الذين يحاربون معهم . . . ويذكرون فلاناً وفلاناً من الرجال المعروفين بالشجاعة والإقدام الذين كادوا يفتكون بهم لأنهم يشكون في أنهم مجموعة من الجواسيس . . !! على الرغم من ذلك ، فإن وجود الجيش وحركة سياراته تحمل لهم بعض الطمأنينة في أن يبقوا ـ على الأقل ـ في مكانهم . . ولكن القدر كان لهم أيضاً بالمرصاد ، يخبىء لهم هذه المرة داهية الدواهي ، وقاصمة الظهر . . تنتظرهم وتنتظر جيشهم الذي يطمئنون إليه من قريب ، تروح وتغدو سياراته إلى «العوجا حفير» .

* * *

ففي إحدى الليالي بدا لهم أن جهنم قد أشعلت واحدة من حرائقها من فوق بئر السبع ، فقد كانت النيران والأضواء والانفجارات كلها فوق مدينتهم الكبيرة التي كانوا لا يتخلفون عن سوقها في كل أسبوع ، ولكل واحد منهم فيها ذكريات وأصدقاء . . . كانت جهنم التي فتحت أبوابها هناك قد أنستهم ما هم فيه : «ومن هم ، وما هو عددهم وعدتهم بالنسبة للناس هناك»

وكانوا هذه المرة على مثل اليقين بأن بئر السبع قد تعرضت للهجوم، وهم يدعون الله للمدافعين بالنصر، والخوف في قلوبهم يكبر حتى ليصور لهم أنهم أمام أشياء كبيرة وخارقة لا يستطيعون مواجهتها! وهم يهمسون لبعضهم «هذه لا يمكن أن تكون قوة اليهود». لقد عرفناهم يا جماعة... هؤلاء هم الإنجليز، انضموا لليهود، إن الإنجليز لم يخرجوا، وإنما اختفوا مع اليهود في المستعمرات المجاورة... وصرخ واحد وهو يقسم: إنهم هم... أي الإنجليز، «ألم تروا وجوههم الحمراء»!!؟

كذلك كانت أنباء انسحابات الجيوش وهزيمتها أمام تلك العصابات التي جربها العرب، وجربوا مواجهتها، وكان المناضل العربي يفخر بأنه استطاع أن يصمد وحده أمام حمولة السيارة منهم، فبقدر إكبار الناس لتلك الجيوش العربية وتقديرهم لقوتها، بقدر ما تنعكس هزيمتها ذعراً في نفوسهم، وأوهاماً تكبر في أعماقهم، إنهم أمام قوة غريبة ليست من صنف أولئك اليهود الذين يعرفونهم، قوة ربما في يدها أسلحة سرية، وقال أحد البدو: «من يدري، فربما معهم غازات تقتل الناس، وتدوخهم بمجرد شم رائحتها»!

ولم يطل الانتظار بعرب «سالم»، ففي الصباح كان الفارّون، الناجون بأنفسهم من أهل بئر السبع قد وصل بعضهم إلى الهضاب القريبة، النساء والأطفال حفاة ينامون تحت العراء... لقد نسي البدو أمام هذه الكارثة كل ما أصابهم، وما يمكن أن يصيبهم، فهم-على الأقل-عندهم بعض الجمال التي يحملون عليها أطفالهم وبعض حاجاتهم، وهم في نفس الوقت يعيشون في أرضهم أو فيما هو شبيه بهذه الأرض، أما أهل المدن الذين لم يجربوا السير على الأقدام

طويلاً، ولم يعرفوا النوم تحت النجوم.. يا للهول!!

لقد اختلط البدو بالهاربين، يساعدونهم بشربة الماء، أو بتوجيههم للطرق الأقصر إلى الغرب، حيث مظنة الحماية والأمن، وفي نفس الوقت كان هؤلاء البدو يطوون بيوت الشعر على ظهور الجمال ويتحركون إلى أمام، نحو المشارف الغربية قريباً من حدود سيناء..

ولقد توالت المصائب، ذلك لأن الأعداء لم يقفوا عند بئر السبع، وإنما أخذوا يتحركون إلى الجنوب، معهم مدافعهم، وطائراتهم التي تروح وتغدو، ولقد ضربت إحدى الطائرات عربهم عند «بئر ابن حمد» شرقي «عوجا حفير»، لقد توالت المصائب على الناس، ولكن الذي يبدو أنها تدخر لسالم منها بحصة متميزة، لقد قتلت رحائلهم: الجمل والناقة بقنابل الطائرة، وأصيب والده بجروح بسيطة «في نظرهم» ولكنه قضي بعد أيام من تلك الجروح، وهاجمت العلل أمه بعد ذهاب «شيخها» أو زوجها، ولم تلبث إلا أياماً قليلة لكي تلحق به، لقد كانت جنازات بسيطة، وقبوراً أبسط، وكان عمه هو كبير العرب، الذي يتمتم بكلمات العزاء عند قبر أخيه، بجوار البئر، «بئر ابن حمد»، كذلك قبر أمه بجوار ماء «بئرين» جنوب «العواجا حفير».. حرصاً من الأحياء، أن يكون هؤلاء الأموات بجوار الماء لكي لا تظمأ أرواحهم!

لقد بدا «سالم» شخصاً آخر، ذلك الشاب الفولاذي الإرادة، بدا كأنه لا يعنيه شيء في الدنيا، وحين «زطمت» الرصاصة في بندقيته، ولم يتمكن من إخراجها، رمى بها بعيداً، فتناولها عمه الذي ازداد منه تقرّباً وعليه حنواً، وسالم يقول: «إن المدافع لم

تنفع ، هل يمكن أن تنفعنا مثل هذه الحديدة المصدّية!» ، لقد خسر سالم كل شيء ، ولم تبق له إلا تلك البندقية ، وحين نفدت زوادة القوم من «الحبوب» ، باعها بأبخس الأثمان ، واشترى من سوق «القصيمة» على أطراف سيناء كيساً من الدقيق ، ولكن ذلك مقدر له أن ينفد أيضاً ، فبدأ سالم يفكر كيف يوفر لهذه العائلة ، التي أصبح واحداً من أفرادها القوت الضروري ، لكي لا يموتوا جوعاً . . خاصة في أيام الشتاء المقبلة . . لقد تجاوز سالم حرب اليهود ، والانتقام منهم ، لأنه أصبح وجهاً لوجه أمام الجوع . . . وإذا بقي في العمر بقية «فسوف نتواجه يوماً ما . . .» ، ولقد ظل خاطر واحد يلح على سالم في هذا الشأن ، فأسرّ إلى عمه يطلب ناقته ، ليعود إلى «المنطرة» ، وهو اسم مجموعة المخازن للعرب الواحدة ، التي يكون لها في الغالب «ناطور» يحرسها . . . كانت المنطرة ملأى بالحبوب والتبن ، بما يكفي العائلة لكل سنوات المحل في العادة . . . لقد كان الخير كثيراً ، وكانت حصيلة القمح والشعير متميزة في ذلك العام عن الأعوام السالفة ، ولقد استمع العم إلى سالم ، وهو متردد لا يستقر على رأي ، فالناقة إذا راحت ليس لهم «رحولة» غيرها ، وهذا يعني في نظرهم نهاية العائلة ، وسالم أيضا ، من يضمن سلامته ، وهو على ما يعرف من تهور وجرأة . . ولكن «سالم» أقنعه في النهاية وهو يعاتبه : «الناقة أغلى مني يا عم!؟» .

ولم تكن الناقة أغلى منه على أي حال عند عمه ، ولكنها هو والناقة لازمان للعائلة لزوم الحياة . . . لقد وضع على الناقة رحلها ، وانطلق بها ، نحو المخازن في هدوء ، ليس عليه إلا ثوبه وغطاء رأسه ، وليس في يده إلا العصا التي يسوق بها الناقة ، لقد كان في مهمة سلمية تماماً ، لم يفكّر في حمل سلاح من أي نوع ، حتى خنجره

لم يحزمه كالعادة على وسطه، وساق الناقة مع المنحدرات الخفية، وكلما اضطرته الطريق للارتفاع، كان يوقف الناقة، ويتطلع هو إلى الدرب، حتى إذا رآها «سالكة» أي ليس عليها رصد، انطلق بناقته... ولقد مشى ساعات دون أن يرى أحداً أو يراه أحد، لقد كانت المنطقة خالية تماماً إلا من طائر «المكّاء» هنا أو أو نسر هناك، حتى أقبل على «المنطرة» من الغرب..!

كانت هناك هضبة، أو تلاّ كبيراً من الأرض الرملية المنثورة بالأشجار الصحراوية، تطل على «المنطرة»، وعلى المستعمرة... إلى الجنوب الشرقي منها.. من على هذه الهضبة، قام «سالم» بالاستطلاع اللازم، للاطمئنان قبل الانحدار إلى «المنطرة»!

كانت المخازن هادئة كأن عليها سكون الموت، وكانت المستعمرة على حالها أيضاً اللهم إلا السيارات التي تكاثرت، مع عدد الأكشاك، ولكنها هي أيضاً تبدو هادئة من بعيد!

* * *

لقد عاد سالم في خفة وحماس إلى ناقته، يقودها مسرعاً إلى المخازن.. وكانت الناقة أسرع منه خطواً، وهي مقبلة على مراحها، ومراتعها، كانت هي الأخرى تعرف ـ ومن يدري ـ أنها هي الأخرى، كانت تعرف الخطر والخوف مثلما يعرفهما سالم، وأنها تشم رائحة الخطر مع رائحة التبن والشعير!

إلى جانب «كِمْر» يعرفه تمام المعرفة «برّك» الناقة، وفي هدوء وخفة أنزل الشوالات الفارغة، وأخذ في إزاحة قشرة الطين عن التبن...!

* * *

في حقول بئر السبع الواسعة تخزن القبائل التبن والحبوب في سهولة ودون تعقيد، فهم يجمعون التبن كومة كبيرة، ومنهم من يخزن الحبوب في حفر مبطنة بالتبن أو يخزنونها في داخل هذه الكومة من التبن، ثم يغطّون «الكومة» الكبيرة، ثم ينشرون عليها بعد ذلك قشرة من الطين، يأخذونها من حول كومة التبن، فتصبح القشرة غطاء سميكاً مع أول «رشة» مطر، ويصبح الأخدود الذي أخذ منه الطين «نأيا» يتجمع فيه الماء الذي يسيل من «الكمر»، أو من حواليه، لكي يحفظ «الكمر» من تجمّع الماء في الشتاء وتسربه إلى التبن والحب في داخله.

* * *

لقد استطاع «سالم» أن يكشف التبن أبيض نظيفاً، وأن يضع قشرة التراب جانباً، وزاح في حجره قليلاً من التبن وضعه أمام الناقة، ثم أهوى على قشرة التبن السميكة التي تغطي حب القمح، ليملأ «الشوال» وهو في حيرة من أمره كيف يمكن أن يحمّل الناقة، وحده، وكيف يمكن أن يجمع «العدل» إلى «العدل» الآخر...

وفجأة يدوي صوت غريب: ارفع ايدك..!

يقول سالم: لقد رفعت يدي دون روية أو تفكير والتفت إلى ناحية الصوت!

* * *

كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية على الهضبة المقابلة، وبين الهضبة وبين سالم، يقف هذا الشخص الغريب «زهري» اللون وكان صدره عريضاً ومكشوفاً، يلمع عليه سلسال ذهبي، كان

مخلوقاً ضخم الجثة، وفي يده بندقية يصوبها نحو سالم، وسالم النحيف القصير القامة، الجائع والمتهالك من التعب، يواجه في صبر وثبات نهايته، وهو يظن أنه ناطور جديد كلّفه اليهود بحراسة المنطرة، كان في عيني الرجل بريق يشبه ما يكون عادة في عيني القط الضخم، حين يقع تحت مخالبه فأر صغير، وكان على وجهه وفي شفتيه صورة فريدة لمزيج من الازدراء والاستخفاف والتشفي. . . !

قال بلكنة أجنبية : شو اسمك؟

اسمي سالم!

الرجل : يا سالم «أنت لازم تموت اليوم»!

سالم : أنا ما معي سلاح يا خواجة. . دخيلك!

الرجل: «غمّي رأسك»!

يقول سالم : لقد أخذت طرف «حطتي» ووضعتها تلقائيا على وجهي، ولكني تركت لعيني منفذاً لرؤية ما يجري، ولم أتذكر في تلك اللحظات إلا الناقة، وحياة التعاسة التي ستحياها العائلة بعد هلاكها. . فقال الرجل : نزّل الغطاء تحت. . فنزلت طرف «الحطة»، ولكني تركت منفذاً للرؤية من فوق. . فما كان من اليهودي إلا أن اقترب مني دون اكتراث، ليحزم عيني كما يريد، . . وفعلاً أمسك بالحطة، ووضع بندقيته بين رجليه، وهو يحزم رأسي. . . !

وفي حركة يائسة، أهويت بيدي على البندقية، وفي لمحة قذفت بها بعيداً وراء تل التبن. . فأمسك الرجل بي، ورفعني إلى أعلى، ورماني أرضاً، وحاول أن يتخلص مني ليصل إلى البندقية، ولكني بجهد المعلق بالحياة وهو يواجه الموت، تعلقت بعنقه، فرماني

أرضاً للمرة الثانية ، فأمسكت برجله ، فعثر في «الأخدود» من حول تل التبن ، فوقع فيه ، فحاول ان يستند ، ولكن الأخدود كان كأنما فصّل عليه تفصيلاً ، فكان بمحاولاته وتململه كأنما يتمكن في داخل الخندق أكثر ، وقفزت فوقه وهو يحاول عبثاً الخروج ، وكان جهدي يتلخص في ضغط العضو الذي يرتفع منه الى أسفل . . . وأثناء ذلك كنت أفتش عن أي أداة أو حجر أضربه به ، فلم أجد شيئاً . . إلا «زلطة» في مثل شكل «البلحة» الطويلة ، فأمسكت بها ، وفي حركة رتيبة ، وبكل ما آتاني الله من قوة ، بدأت أضربه بها في أم رأسه ، وكان الرجل قد أعيته الحركة في ذلك الخندق ، فلم يستطع أن يقاوم . . فلم أكف عن ضربه بذلك الحجر إلا بعد أن رأيت الدم مخلوطاً بمزيج أبيض من رأسه وكفّ هو عن الحركة تماماً!

جرى ذلك في سرعة ودون وعي من سالم ، وفي سرعة تناول البندقية وقفز على ظهر الناقة وانطلق بها دون حبة قمح أو شعير ـ للنجاة بجلده قبل أن يكتشف أصحاب الرجل ما حدث!

* * *

حين لقيت سالماً بعد ذلك ، أخذني إلى البيت المجاور «للقصيمة» تلك القرية الصحراوية في شرقي سيناء ، وعلى مرمى النظر من «عين القديرات» ، وبعيداً عن المراقبة ، أخذت أقلب معه تلك البندقية «الهاغانية» وهي غنيمته من تلك الرحلة إلى المخازن!

وكان العم هذه المرة ، هو الأحرص على جمع سالم «وسليمة» ، وكان مجيئي بالنسبة لسالم فأل خير ، وأنا أعرف القصة من بدايتها . .

وناداني العم مع أحد الأقارب ، وهو جالس في خلوة مع سالم

إلى جانب شجرة، قريباً من البيت، وتناول عوداً أخضر من الشجرة، قدمه إلى سالم وهو يقول: «هذه قصلة سليمة ابنتي، أزوجها لك يا سالم على سنة الله وسنة رسوله» وقرأنا الفاتحة، وعدنا إلى المقعد المتواضع في البيت، ننتظر عشاء الفرح.. الذي جرى في صمت، لا يعكره إلا صوت السيف يقطعون به الذبيحة.. وحين عدت في اليوم التالي أقود شاة «نقوطاً» ومباركة للعريسين عرفت أن «سالم» لا بد وأنه قد بدأ في قضاء اسبوع «العسل» تحت إحدى الأشجار، أو في حنايا الأودية المجاورة بعيداً عن أعين الرقباء!

* * *

بعد أكثر من عقدين من السنين، دخل علي صاحبي، في مكتبي في الصحيفة لم تغيّر الأيام الطويلة في هيئته كثيراً، والحي رزقه حي - كما يقول هو - ولقد كبرت العائلة وكبر الأولاد.. «ولا بد من (هويّة) يا فلان». «ولكن الهوية» تحتاج من الأوراق «الثبوتية» يا صاحبي، ربما أكثر من الأوراق اللازمة لإثبات حقك في «الخزعلي» ووادي الخلصة، وبئر «عسلوج»،... أين عقد زواجك على «سليمة»، وأين تذاكر السفر التي قضيت فيها شهر العسل، وناولني شهادة ميلاد كل ولد على حده، وو...؟!

وضحلنا معاً من شر البلايا التي مضت والبلايا التي نظنها ستأتي!

على قارعة الطريـق

كانت الظلال توشك أن تكسو سهول غور الأردن ، وأشعة الشمس تقفز على قمم الجبال المحيطة ، كأنما تعطي إشارة الانسحاب أمام هجوم الظلام . . والسيارة تنطلق بنا في أصيل يوم دافىء رطب من أواخر أيام آذار من عمان إلى القدس ، وكانت مجموعة متناثرة من بيوت الشعر تبدو أمامنا من بعيد كالإبل الهاجعة .

* * *

فلما اقتربنا من تلك البيوت ، رأيت على جانب الطريق عجوزاً ترفع في يدها بيضة ، ومجموعة من الأطفال يلعبون حولها . . قلت لصاحبي : إنها فرصة نشتري بها البيض الطازج من هذه البدوية! قال : لعلّها تكون إحدى قريباتك ، فتتبادل معها الذكريات ، لا تؤخرني هداك الله . . !!

* * *

كان صاحبي يستحثني بكلماته تلك ، وأنا لم أقطع الأمتار القليلة إليها ، ويدها ما زالت ممدودة إلى أعلى بالبيضة كالجذع اليابس ، والأطفال يتحلقون حولها ، يرقبونني بعيون خاوية وأثوابهم ترفرف مزقاً مع الريح ، ولما وقفت أمام العجوز وجدتني أمام صورة يمكن ـ لو نقلها فنان بأمانة ـ أن تكون لوحة خالدة لتعاسة الإنسان وفقره وهمومه منذ أن هبط آدم إلى هذه الأرض .

* * *

لم أبدأ المساومة، ولكنني سألتها: ممن العرب؟

وأشارت إلى بيوت الشعر القريبة، قالت: من بدو بئر السبع، قلت: من أي القبائل؟ قالت: من العزازمة، قلت: من أي العشائر؟ قالت: أو تعرف العشائر.. إنهم من قوم (ابن مرعي)، قلت: كيف عودة بن سالم؟ قالت: أعطاك عمره! قلت: يرحمه الله. هل أنت من قريباته؟ قالت: أنا امرأته.

* * *

فأحسست بدوار يلفني، وبالذكرى تعود بي إلى الوراء، لتطمس هذه الصورة المؤلمة، وتضع أمامي صورة أخرى زاهية في حادثة لم تبرح ذاكرتي مذ كنت في الثامنة من عمري..!

* * *

كان ذلك في عطلة الربيع في أول عهدي بالمدرسة، وقد جاء والدي من البادية ليحملني إلى هناك.

* * *

لم أنم تلك الليلة ولم أذق طعم المضغ فيها، وأنا أحلم بلقاء أمي وإخوتي؛ وقبل انطلاقة الأذان وصياح الديكة استيقظ والدي، وبعد دقائق قليلة كنت رديفه أمسك جيداً بعباءته، وهو يسوق هجينه «الجافل» بين شوارع بئر السبع الواسعة..

* * *

لقد خلفنا المدينة بعيداً إلى الوراء، وأشرقت الشمس على

بساط أخضر يلمع الندى على أزهاره، وأحسست بالجوع يهصر أمعائي، والجمل يهوي برأسه على العشب بين الحين والحين، إلى أن أقبلنا على بيت كبير من الشعر، فأناخ والدي البعير عنده، وأخذ بيدي إلى الداخل..

لم أر رجالاً كالمعتاد في «رفة» الضيوف، وجلسنا على بساط نظيف، وكانت «دلال» القهوة في نار لم يخفت جمرها، ولم نلبث إلا قليل وقت، حتى امتدت يد بضة وافرة من وراء الستار الذي يفصلنا عن بقية البيت، بقدح من الخشب مملوء حليباً، وهي تقول: «صبحكم الله بالخير يا ضيوف!»

فرد والدي عليها التحية، وتناول القدح، وشرب وشربت، ثم رشف من «دلال» القهوة ما شاء، وأنا أستمتع بلذة الراحة بعد عناء الركوب، والغنم من حولنا تجتر في كسل مع دفء الشمس لا تمد فمها إلى العشب، والحملان تقفز من فوقها ومن حولها، وما هي إلا هنيهة حتى ارتفع الستار مرة أخرى، وامتدت اليد ذاتها بوعاء أكبر فيه فطائر القمح الرقيقة، منقوعة بالسمن واللبن، فأهويت عليه، ولا والله ما أكلت مثله فطوراً بشهية ولذة، ولما أخذنا كفايتنا، و «تململ» والدي للقيام، نادت المرأة إن «راعي» البيت تقصد صاحبه ـ قادم بعد قليل، ولن تذهبوا قبل القرى، لا بد أن تنتظروا الغداء!

والمرأة تلح، ووالدي يعتذر، وأنا أدعو في نفسي أن لا يقبل، لكي لا أتأخر عن أمي وإخوتي، ولما انطلق جملنا يخب بنا في طريق الأهل، قلت لوالدي: من هذه المرأة التي أطعمتنا؟ قال هذه زوجة

الشيخ عودة بن سالم بن مرعي! ولو وجدناه ما «تسلكنا» منه، ولتأخرت عن أمك اليوم!

* * *

وانقطع شريط الذكرى، وتنبهت على صوت سيارة مارة، وعبثاً حاولت أن أجد ملامح لتلك اليد المملوءة بالحياة، في هذه اليد الممدودة أمامي. وقلت: يا خالة، أتعرفين فلاناً، (أعني والدي)، قالت: إي والله، ولكنني لم أسمع بذكره هنا، قلت: أنا ولده! فصرخت العجوز «أواه» في انتفاضة مفاجئة، فوقعت البيضة وساح صفارها وبياضها على الأرض، والمرأة تمد يدها إلى بقايا ثوبها تجمعه على أكتافها حياء، فقذفت في حجرها بما في جيبي من نقود قليلة، وأسرعت إلى صاحبي، وهي تنادي محتجة، وصاحبي يقول: ألم أقل لك: إنها لا بد أن تكون إحدى قريباتك! قلت في انفعال ظاهر: لا حول ولا قوة إلا بالله!

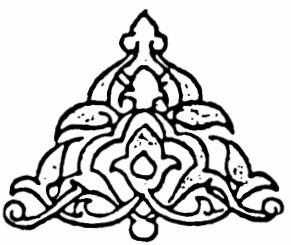

على درب الرحيل

في أواخر عام ١٩٥٦ ، ارتفعت أصوات النجدة ، وطلب الغوث لأفواج جديدة من اللاجئين من ضحايا النكبة من أبناء بئر السبع ، وأخذت أخبارهم مكاناً بارزاً في صحفنا آنذاك ، وخفَّ جلالة الملك حسين إلى نجدتهم بنفسه في أيام الثلج القاسية ، من ذلك العام ، وسارعت جمعيات وأفراد من صيَّادي الخير إلى مساعدتهم وتخفيف ويلاتهم ، ولكن رجال وكالة الغوث قبضوا أيديَهم ، وصرفوا وجوههم نحو نيويورك ، وتشاغلوا بالأعذار ينتظرون الأمر من السكرتير العام ، فوصلت قضيَّتُهم بالرُّوتين المعهود إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ولكن صراخ هؤلاء اللاجئين تبخر بين تقارير رجال الوكالة وأروقة هيئة الأمم ، وتجمَّدت مأساتُهم مناقشات بيزنطية في أروقة الأمم المتحدة ، لتختفي تباعاً بين أضابيرها . .

* * *

لقد قالوا عن قبائل بئر السبع : إنهم رعاة للأغنام والإبل ، يغدون ويروحون وراء العشب ، ويظهرون ويختفون تبعاً لظروف عيشهم دون ضابط أو رقيب . بدو ، لا وطن لهم إلا ظل بيت الشعر ، لا فرق عندهم بين هذه الأرض التي يقيمون عليها ، أو تلك التي جاءوا منها إلا بمقدار ما توفر لأنعامهم الخصب والنماء . لذلك فإنَّ هذه الأفواج من العرب يصح - على أساس هذا الإدعاء - أن

تكون خارج تعريف اللاجىء المربوط (بالزمان) والمحدود بالمكان، ولا تشملهم الصدقات الهادفة التي أدَّت أغراضها بدونهم، ولا يحق لهم التعويض، حتى ولو كان ذلك من لقيمات الوكالة التي جرّبها السابقون من إخوانهم.

فأين ظلال الحق في هذا الكلام، ولماذا تأخر هؤلاء اللاجئون - ومعظمهم من قبيلة العزازمة - عن إخوانهم من ضحايا النكبة، وكيف حُرِمُوا من الصدقات والخدمات التي تقدّمها وكالة الغوث، وماذا كان بينهم وبين جنود إسرائيل، وكيف كانوا في أوطانهم، وكيف وصلوا إلى ما صاروا إليه؟ ثم كيف مَشَوْا في النهاية (رحلة الموت) من سهول بئر السبع إلى مغارات جبال الخليل، أو سفوح جبال الشراة...؟

قصة لا تنطبق على جماعة بذاتها وإنما تنطبق على الكثيرين من البطون التي تخلفت من القبائل الرئيسية في منطقة بئر السبع أو التي قررت الثَّبات ومحاربة الغزاة حتى النهاية. وأنا واحد من الذين راقبوا فصولَ هذه القصة المثيرة والمرعبة، وأعترف أن مهنة الصحافة التي يسَّرت لي حركة القلم، قد جنت على الخصوصية والتفرغ لعرض هذه الحقائق للناس، وكنت حريًّا أن أتعامل مع ما يتكشف من هذه القصة، كما أتعامل مع بقية الأخبار اليومية في الصحيفة، لولا أن وفداً منهم جاء يحاسبني ويلومني، أني أكتب، ولي منبر أخاطب منه الناس في الصحيفة، ولا أتحرك لمأساة «أخوالك» من العزازمة!!

(وأخوالك) هذه التي يجعلها القوم ركيزة للوم والعتب قد لا تهزُّ أحداً في المدينة، غير أنه كان لها بين القبائل شأن عظيم، وكان لها في حياتي آثار بعيدة، ولها الكثير من الذكريات الحلوة، لا أحب

أن أمسك القارىء طويلاً عندها، ولكني أستميحه المعذرة حين أُطلق بين يديه حسراتٍ قليلة وراءها قبل أن أدلف إلى موضوعنا الرئيسي!

فقد كان من الصُّدف الطيبة أن تجمعني قرابة بعيدة من ناحية أمي مع قبيلتَي العزازمة والتياها، وهما مع (الترَّابين)- قبيلتي -، تعتبر القبائل الرئيسية في بئر السبع، إلى جانب قبيلة (الجبارات) في الشمال، فقد كان أخوال أمي لأبيها من (المعانين) العزازمة، وهم رهط من عشيرة المسعودِيين قادة القبيلة وأصحاب رأيها، وكان أخوالها لأمها من (السقيرات) من عشائر التَّياها التي تستوطن شرق سيناء، وكان من المتعارف عليه بين القبائل، أن مثل هذه القرابة حين تقع، لا تقف رابطتها بين الفرد وأخواله الأقربين، بل تتعداهم لتصبح القبيلة كلها خؤولته، وكلَّما نبه ذكره، كلما كان أدعى إلى سعة الفخر والاعتراف به، والاستفادة من حقوق هذه القرابة في فض المشاكل، وتهوين الخصومات، ونجاح الوساطة في أشد قضايا القبيلتين تعقيداً!

ولقد كنتُ طفلاً عندما سمعت - لأول مرة في حياتي - باسم (العزازمة) في قصة ما زالت تأخذ مكانها من الذاكرة كأنَّما حدثت لأيام!

كان الفصل ربيعاً، والشمس ترتفع قليلاً قليلاً من الشَّرق، تعانق أشعتها النَّدى، وتختلط الظِّلال بالخضرة التي ليست لها حدود. . . وفوجئت بأمي تهيىء من لباسي، وبوالدي يضع على كتفي عباءة صغيرة، وأمسكَ بيدي، وبيده الأخرى إبريق الماء إلى تَجْمع عربنا تحت شجرة ظليلة يتساقط الندى من أوراقها. . . وكان

كلبٌ من كلابنا يلعب في حركة دائرية من حولنا، وكان آخرُ يمدُّ رأسه على الأرض في إطراقة طويلة، وصغار الجمال (الحيران) تمرُّ مسرعة تطارد بعضها كأنَّما تقوم بالتمرينات الصباحية، أما الغنم، فقد كان الرعاة يعزلون الصَّغير منها عن الكبير، لتنطلق الكبيرة إلى المرعى، إلى الأعشاب البكر، التي لم تدنِّسها الكلاب، ولم يقطف زهراتها السرح، فتُوَدِّعُ بعضها، في نواح حزين، وعلى مقربة منا حقول القمح والشَّعير كالليل الأسود، تبدو في وسطها الخيل كالحرَّاس، تتبادل النفير والصهيل...!

وألقى والدي تحية الصَّباح على الحلقة الكبيرة من الرجال الذين يحيطون (بمعاميل) القهوة، فوقفوا كالسُّور، يبادلونه التحية ويفسحون له، وتبادلتني الأيدي يقبلني أعمامي وذوو قرابتي، إلى أن وصلت إلى الرِّجال الغرباء، فعانقني شيخ كبير في حنوٍّ وعطف، وأجلسني إلى جانبه وهو يدعو لي ويبارك لوالدي، وأخرج من جيبه حفنة صغيرة من (الملبّس) وضعها في طرف عباءتي، وبدأ الحديث عن قِرَى الضُّيوف، وتوجّه الرجال إلى قاض من بينهم، كل واحد يدلي بحجته، يحاول أن لا يفوته هذا الشرف، شرف الفوز بقرى الضيوف، واحتجَّ والدي باسمي، إنني أحق الموجودين جميعاً بالضيوف، وقبل أن يحكم القاضي، أقسم الشيخ الضيف بجانبي أنَّ قِرَى (العزازمة) سيكون هذه المرة عند (ابناخِهم)، وهمهم الرِّجال راضين، وكأنما أسقط في أيديهم بهذه الحيلة، وقفزت بإشارة من والدي إلى البيت. وأنا أتعثَّر في طرف عباءتي وأشد الطرف الآخر على (الملبَّسات)، وكانت أمي تتطلع إليَّ ممسكة (بقادم) البيت، والكلب يجري أمامي، كأنَّما ليُعلِنَ هذا النَّصر الذي أحرزته، وأنا أنادي قبل

أن أصل : اذبحوا غداء الضيوف . . ! مقلِّداً سَمْتَ والدي ولهجته ، وتضمني أمي إلى صدرها (يا مرحباً بولدي ، كبرت ، وَجِبْتَ الضيوف . . !) ولا والله ما رأيتني ولا رأيتها أسعد من تلك اللحظات في تلك الأيام من حياتنا البسيطة الساذجة!

وتطورت هذه الصلة في نفسي مع الأيام ، وازداد الشعور بـ«اللاقبليه» عُمقاً في حياتي ، وعرفت رجالاً كثيرين من كبار العزازمة ممن لهم صلة بوالدي ، وزرتهم في مرابعهم ، فما شعرت قطُّ بالعصبية لقبيلتي ، وبالفخر على هذه القبيلة أو تلك ، رغم ما يثور بينهم عادة من الحزازات والمشاكل ، فلمَّا واجهت الحياة شاباً قبيل الكارثة ، كان أول أهدافنا ـ حين كانت لنا أهداف ـ توحيد القبائل ، ومحاربة النعرات القبيلية ، وكان أن وَفَّقَ الله بعض الإخوان من مختلف القبائل إلى تشكيل جبهة للشّباب البَدْوِ ، تلك المنظمة التي أشار اليها صديقي محمد عبدالهادي ، حيث كان يتولى فيها رئاسة اللجنة العسكرية يوم كان «قائم مقام» لمدينة بئر السبع ، في أواخر أيام الانتداب البريطاني ، وإني لأرجو أن يفسح الله في العمر لكي نعرض لها يوماً ، وفاءً للشهداء الذين قَضَوْا وللأجيال التي من حقِّها أن تعرف كل ما كان!

* * *

كانت صور الماضي ، وأخيلة الحوادث البعيدة التي عاصرتها بين القبائل في بئر السبع تمرُّ سراعاً على ذاكرتي في شريط لا ينتهي وأنا أهيىء نفسي بالملابس البدوية في انتظار موعدي مع رسول القوم، فلما أخذت مكاني في السيارة إلى جانبه ، وتجاوزنا حدود العاصمة

عمان إلى التلال والسهول الخصبة المجاورة، أغمضتُ عيني أستعرض في مخيلتي تلالاً مشابهة وسهولاً مماثلة من بلادنا، كانت تخصُّ قبائلَ بئر السبع، والتي تأبى هيئةُ الأممِ أن تعترف لها بوطن، وتنكر أن يكون لها مقر، كباقي المخلوقات، لقد مرَّت بمخيلتي (خوارط) مجسمة لأودية أعرفها، ومواقع لي فيها ذكريات، وأصدقاء.

لقد تذكرت (الشقيب)، و (الخلصة) و (عسلوج) و (وادي الأبيض)، وتذكرت (خراشة) ومياه (رخمة)، وتذكرت منازل المحمديين والصبحيين والفراحين... تذكرت منازل العشائر ومزارعها وبيوتها المبنية باللَّبِنِ والحجر أحياناً، إلى جانب بيوت الشعر الكثيرة التي تتناثر في المنحدرات والسهوب.

فماذا فعل اليهود في القرى الكثيرة العامرة، مثل (الخلصة) و«عسلوج» و «مرطبة» و «الشريف» وأي تَجَنٍّ على الحق وسخرية بالواقع، حين يزعم اليهود وأشياعهم أنَّ قبائل بئر السبع بدو تقودهم الجمال والأغنام إلى حيث الأعشاب والمراعي دون حدود أو قيود!

ولعل اليهود يزعمون اليوم أنهم هم الذين بنوا السدود في الأودية، ووضعوا الحدود بين المزارع، وهم الذين بنوا قرى الخلصة وعسلوج، والدور المتناثرة في سهول بئر السبع الواسعة عند منابع المياه وجوانب الأودية، ولعلهم كذلك لا يتذكرون البيوت النظيفة والحديثة التي بنيت في عسلوج!؟

لقد رأيتني في العاشر من أيار من عام ١٩٤٨ والإنجليز يتهيأون لمغادرة البلاد، أنتقل مع جماعة من إخواني جنود الهجانة،

وأعضاء جبهة شباب بئر السبع إلى بناية الحاج سعيد بن سعيد، غربي نقطة البوليس في عسلوج، حيث جعلت قلعة تتجمع فيها أسلاك المتفجرات، ونثرت على الهضاب المجاورة مجموعات من الرجال يرقبون كل حركة في المستعمرة المجاورة إلى الغرب، فلا يستطيع واحدٌ من اليهود أن يخرج من وكره، ولا أن يبرز من استحكامه!

كان (عودة بن عقيل) لا ينام الليل كله، وكلما رأى حركة غير عادية، أطلق من شفتيه صفيراً ناعماً، يقلد به الثعابين والأفاعي، أو عُواءً يقلد به الثعالب، فينطلق عبدالمالك الوحيدي وسليمان بن سعيد إلى مجمّع الأسلاك. ونحن جميعاً نتهيأ للمعركة التي نظنها قادمة، وكانت بناية البوليس في وسط ساحة واسعة جداً، كان الإنجليز قد اتّخذوا منها معسكراً كبيراً، بنوا فيه الأكشاك الكثيرة، ولم يكن لمن يهجم علينا إلا أن يتقي بتلك الأكشاك، أو يختفي فيها، فوضعنا في كل كشك لغماً ينسفه على من يدخله عند اللزوم. . . !

ولقد رأيتني كذلك في الثالث عشر من ذلك الشهر، ونحن في ذروة الحماس نتهيأ لاستقبال الجيوش العربية، وقد خرجت قُبَيْلَ الغروب مع صديقي (عطية)، نتقدم وحدنا نحو المستعمرة، حتى إذا وقفنا على مرمى الرصاص أخذت أفتش المستعمرة المجاورة بالمنظار المكبر، و (عطية) يؤشر لي هنا وهناك كأنما يعيّنُ لي المواقع، ويدلني على منافذ الهجوم، ولم يكن لنا غرضٌ إلا «التخويف» فحسب، في ظل الرعب الذي استولى على المستعمرات اليهودية في تلك الفترة القصيرة من الترقب والانتظار، ولا والله لم ينم اليهود تلك الليلة، لقد كانوا يطلقون النار بصورة متواصلة على أية حركة يتخيلونها، وعلى الأشجار

والهضاب المجاورة، ونحن نحتسي في هدوء أكواب الشاي، حتى إذا جاء الجيش النظامي، سلّمنا له القيادة، ووضعنا بين يديه الأمانة، وتمركزت فئات من المتطوعين الليبيين والمصريين في عسلوج، ولم تمض أسابيع حتى كانت هذه القرية ذات الموقع الخطير في أيدي أعدائنا الألداء، رجال المستعمرة المجاورة يقطعون منها طريق بئر السبع ـ العوجا حفير، وتفرّقت تلك العصبة التي حافظت على عسلوج في تلك الأيام السوداء وظفر اليهود بأخي الشهيد (عبدالمالك الوحيدي) واستشهد الحاج سعيد برصاص الجهالة والحمق، وأصابت (سالم الدنفيري) رصاصة بين عينيه في معركة بئر السبع، ومضى عودة بن عقيل إلى حيث لا يعود إلى الصفير على رؤوس الهضاب وجوانبها الحادرة، وتفرق الباقون إلى حيث لا أدري عنهم ولا يدرون عني، ولم يلقني بعدها عطية بن ربيعة إلا رأيت الدمع يجري من عينيه تلقائياً ليجلو في الذاكرة صورة ذلك الزمان البعيد!

مرة أخرى نقول : ماذا تقول الصهيونية عن الكروم المحيطة (بالخلصة) و (العوسجي) و (الضبعي)؟ وماذا يقولون عن الآبار والبيوت التي ما تزال آثارها قائمة؟ هل كان ذلك كله من آثار رعاة يتبعون أغنامهم، لا يبالون أكانوا في عسلوج أم الأردن؟

الذين عاصروا بداية الانتداب، وعاشوا تلك الأحداث، لا يستغربون ما يقوله اليهود وأعوانهم اليوم؛ لأنهم يتذكرون ـ ولا بد ـ بداية المؤامرة على أراضي بئر السبع حين يسمعون ما يثار اليوم من جدل حول تلك الأراضي، وحين يرون «لجان التوفيق» في الزمان السابق يقلبون أيديهم أسفاً أن لا يجدوا ما يثبت أنه كان

للعرب أرض يستغلونها في قضاء بئر السبع ، يذكرون بداية المؤامرة من ذلك اليوم الذي استثنت فيه سلطات الانتداب أراضي القضاء التي هي نصف فلسطين كلها تقريباً من (الفرز) ودخول سجلات (الطابو)!!

لقد كان القوم يخططون لهذه اللحظة التي نعيشها اليوم ، حين كنا يذبح بعضنا بعضاً ، ونثير خصومات لا حد لها عندما يتزحزح حجر عن (الحدِّ) بين مُزارع وآخر ، أو تقطع (باصوله)[1] عن مثل هذا الحد عمداً ، أو عن غير قصد . .

لقد كانت هذه الأراضي التي وجدها اليهود هكذا ـ كما يقولون ـ مشاعاً وخراباً ، «لا تخصُّ جماعة بعينهم» مقسمة من قديم بين القبائل ، لها حدودها المعروفة بين كل قبيلة وأخرى ، وكانت أراضي القبيلة داخل حدودها مقسمة كذلك تقسيماً دقيقاً ومعروفاً بين عشائر هذه القبيلة وأفرادها ، وأن الخصومة لتصل إلى حد امتشاق الحسام بين الإخوة الأشقاء على تقسيم تركة أبيهم ، أو تعديل حدودها . . .

* * *

لقد كان والدي يحتفظ دائماً في الحلّ والترحال بصندوق صغير من الحديد ، فيه أوراق العائلة ووثائقها المهمة التي قد يصل عمرها إلى مئة من السنين ، وكان يلذ لي في أول عهدي (بفك الخط) أن أفتح ذلك الصندوق ، وأقلب أوراقه البالية ، وأتفرج على خطها

---

١ ـ والعيصلات هو الباصول : نبتة تشبه البصل الكبير لها أوراق كبيرة ، يستعملونها لتأشير الحدود بين الأراضي .

الكبير الغريب، والحواشي التي تخالف طريقتنا في الكتابة، وكانت كلها وثائق عن شراء الأرض أو رهنها، تبدأ دائماً بـ (اشترى ـ أو باع ـ المسلم العثماني، الرجل العاقل الموصوف بالأوصاف المعتبرة شرعاً..) وإني لأجزم أن كل بيت من بيوت البدو المعروفة، كان يحتفظ بمثل هذه الوثائق للعائلة، أو للعشيرة كلها، لقد كان بيع الأرض وشراؤها بين البدو تجارة متداولة، ولو أنها في عرفهم تجارة مكروهة، وكنت أسمع منهم أن الأرض تلعن من يبيعها، وتستغفر لمن يشتريها، وكان لها بينهم قضاة معروفون قبل أن تُشَكَّلَ المحاكم النظامية في عهد الانتداب، وتُعْرَفَ الإجراءات الحقوقية التي كانت تسير عليها.

لم تكن قبائل بئر السبع بدواً بالمعنى المتعارف عليه في عيشهم على الرعي والرحيل في طلبه، لقد كانوا قبائل يسكن معظمهم بيوت الشعر، وكانوا يرحلون ويرعون الأغنام، ويرعى قلة منهم الإبل، هذا كلُّه حق، ولكنهم كانوا قبل كل شيء زُرَّاعاً لهم حقولهم وأراضيهم لمحاصيل الصيف والشتاء على حدٍّ سواء، وكانوا يرحلون في دوائر لا تزيد في أكثر الأحوال عن عشرة كيلومترات، وإذا تيسَّر مرعى أخصب في مكان بعيد، فإن الرعاة وحدهم يذهبون إلى هناك، فيما يسمى بالعزبة «أو المنزل المؤقت»، أما البيوت فتبقى في مكانها بقرب أراضيها، وأشهد أن رحيل بعض العشائر لم يكن إلا لتجديد الدار، والهروب من البراغيث والأوساخ التي تتجمع مع طول المقام، لقد كانت الأرض ركيزة حياتهم، وعماد عيشتهم، ولم تكن تربية المواشي إلا مساعداً لها وعوناً، مساعدة أخذت تخف قيمة ووزناً كلما تقدم الزمن، وكلما دخلت الوسائل الحديثة في استغلال

الأرض وزراعتها ، ومن هذا يمكن أن يخمن القارىء مدى ارتباطهم بتلك المزارع ، ومدى الصدق في قول شاعرهم حين كانت قبيلته تواجه غزوا من قبيلة بني عطية[1] من الجنوب في الأيام الماضية!!

بـلادك (تَبـوك) وبلادنـا ساحـل (الخـــــان)
حَجْــرك وطنّــا مـا يعقــب محنـــة

أي ، أن أرضك تبوك ، شمالي الحجاز ، وبلادنا ساحل خانيونس ، واستيلاؤك على هذا الوطن لا يترك شفقة ولا رحمة .

لقد كانت قصة الرَّحيل والعرب الرُّحّل والأرض المشاع قصة قديمة ومدروسة ـ كما قلنا ـ متفقاً على فصولها في أجهزة الدعاية الصهيونية التي كانت تسعى جهدها إلى تعميقها وتثبيتهافي عقول الناس رغم سُنّة التطور ، ورغم الحقائق التي تدمغها بالكذب والتزوير .

فمنذ اليوم الأول الذي يسرت لهم فيه (دولة الانتداب الوصول إلى هذه المنطقة ، وهم يتصيدون المنظر أو الصورة التي تدعم هذه النظرية ، فصورة إلى تقصد البدو ، وأخرى إليهم وهم يستقون الماء على البئر ، وأخرى وهم يرفعون بيوت (الشعر) على الأعمدة ، وكانوا أشد ما يتلهفون على الصورة الزرية ، والقصص الخيالية ، أو النادرة ، ويحاولون الاستفادة من كل سانحة قد تخدم أغراضهم .

لقد كتب المرحوم المؤرخ عارف العارف كتاباً جمع فيه طرائف من حياة البدو ، وقصصاً من تاريخهم ، ونُتَفاً من أساليب القضاء بينهم ، فتناولت دورُ النشر اليهودية هذا الكتاب وعممته على العالم ،

---

١ ـ قبيلة قوية شمال الحجاز كانت تغزو مناطق بئر السبع .

وترجمته إلى ثماني لغات، وأحاطته بالدعاية والحواشي التي يمكن أن تلقي الظلال على أن أهل فلسطين كلهم على هذه الشاكلة، يعيشون مثل هذه الحياة، لا يبنون جداراً، ولا يزرعون أرضاً، كل ذلك ليعرف العالم أن هؤلاء الناس يعيشون حياة الرعي في مثل هذه البدائية، لا يضرهم الرحيل من فلسطين، حين يعود اليهود إلى (أرض الميعاد) التي تركوها قبل آلاف السنين...!

ومع هذا، فإنَّ كتاب العارف يعتبر اليوم وثيقة تاريخية تشهد على تعيين منازل القبائل وأراضيها، ويشهدُ تسجيلُها وذِكْرُ أسمائها على أنهم كانوا هنا...!!

أمام خِضَمِّ الأكاذيب، وحشد المظاهر المزيفة التي أخذت بها هيئة الأمم المتحدة في الماضي، نحب أن نتساءل هنا عن ناحية ما نظن أحداً قد التفت إليها، أو سأل عن سجلاتها، هذه المستعمرات (العشرة) التي أقامها اليهود في قضاء بئر السبع، ونثروها في مواقع استراتيجية تشهد اليوم على المؤامرة المسبقة، كيف تم لهم تأسيسها والاستيلاء على أراضيها؟ هل أخذوها بالغزو، أو هي منحة؟ أم بحكم أنهم عمروها قبل غيرهم، فصاروا أصحابها بوضع اليد؟

هل يتذكر اليهود الذين يتحدثون اليوم عن الأرض المشاع، وعن رحيل الرعاة، وهل يعود رجال الأمم المتحدة إلى هذه المستعمرات، يفتشون في سجلاتها، ويسألون عن أصحابها الأولين!؟

عشر مستعمرات، لا تزيد مساحتها عن ثمانية آلاف دونم هي كل ما استولى عليه اليهود في مدى ثلاثين عاماً من سهول بئر

السبع التي تبلغ مساحتها ملايين الدونمات!

كم حشدوا من أجل الاستيلاء عليها من الأعوان والأنصار؟ وكم مرة استعملت الدبابات ليبنوا في ظلها أوكارهم!؟

جهابذة السماسرة، وخُلَّصُ الأعوان مع الإرهاب الحكومي، كانت حصيلتها هذه المستعمرات العشر التي عاشت في رعب دائم بعد أن تنبه العرب في قضاء بئر السبع إلى خطرها، وبدأوا يحاولون حصر امتداد شرورها في مزارع جميع القبائل بلا استثناء، فكيف يقال اليوم عن الأرض (المشاع) التي لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، و (الرعاة) الذين وقفوا دون أرضهم يدافعون عنها، ويأبون التفريط فيها أمام جميع ألوان الترغيب والترهيب؟

لقد كانت القبائل تسيطر سيطرة تامة على مناطقها، وكانت تحاصر المستعمرات التي تقع ضمنها حصاراً لم يستطع فدائيو الهاغناة معه أن يتصلوا بعضهم مع بعض، إلا في المستعمرات المتجاورة في الشمال، وحين وضع اليهود أيديهم على المدينة، برز رجال تلك المستعمرات، وبدا أنهم جميعاً لا يريدون إلا الجيش النظامي المحارب، واستمروا في زحفهم جنوباً حتى مركز (الشريف)، فعسلوج، ثم انطلقوا إلى العوجا حفير، وتجاوزوها حتى أقبلوا على مشارف العريش في أيام لعلَّ التاريخ لن يسجل صفحاتٍ أسود منها في حياة العرب على مر الأيام، «ولم يخطر على البال أنهم إنما يلاحقون الجيش المصري، ليعودوا بعد ذلك إلى تصفية الحسابات مع المدنيين العزَّل الذين تخلفوا وراءهم»

لقد أطلق اليهود جواسيسهم وأعوانهم يؤمنون عدداً من

البدو، ولكنهم سرعان ما انقضوا عليهم يقتلونهم ويطاردونهم، وكانت معظم القبائل التي تستوطن السهول قد تحركت إلى ما وراء خطوط الهدنة، وارتفع سكان السهل إلى المخابىء الوعرة في الجبال الشرقية أو الجنوبية، وانحاز معظمهم إلى المنطقة المحرمة بين خرائب (السبيطة) والمشرفة ـ ومركز العواجا حفير ـ حيث كانت تجتمع لجان الهدنة المشتركة، وحيث كان يقيم رجال الأمم المتحدة فيها إقامةً دائمة.

لقد بدأ الصراع بين الغزاة وأصحاب الأرض بسيطاً هيِّناً، ولكنه ازداد ضراوة مع الأيام، استعمل فيه العدو كل الدهاء والوحشية التي لا يحدها وصف، ولا تقف دونها حدود!

ولقد كان هم شيوخ صهيون أولاً أن يزرعوا الشقاق والعداوة بين من بقي عندهم من مخلفات القبائل وحطامها، ليتخلَّصوا منهم واحداً بعد الآخر، وكان سكان الجبال مع من أقبل عليهم من قومهم من الشمال، وأولئك الذين لجأوا إلى المنطقة المحرمة يرقبون ـ بنفاد صبر ـ زوال هذه الغمة التي أحاطت بوطنهم وينتظرون النجدة تهل عليهم من الغرب، أو من الشرق، غير أن هذا الأمل بدأت أمواج السراب تلعب بينهم وبينه، وأصبحت كل الحوادث التي تلت بعد ذلك رسلاً لليأس ونذراً للفناء والدمار..!

كان البدو الذين يتركون أماكنهم يخلفون وراءهم مخازن الحبوب، ومؤونة العام، وما يصعب نقله على الجمال، وما يمكن أن يعرقل خفة الحركة، من الفرش والغطاء، وكان معظمهم قد خلف بيوت الشتاء الثقيلة من الشعر، واكتفى ببساط خفيف يربطه على عصا، أو عود يستظل به مع عائلته من حرارة الشمس، ويتغطى به

حين ترمي الصحراء بردها في آخر الليل ، وكانت أحمال (الأباعر) لا تتعدى مؤونة أيام من القمح أو الشعير، إلى جانب هوادج الأطفال والنساء مع قِرَبٍ قليلة لنقل الماء ، وهكذا بقي كل شيء غنيمة باردة يتصرف فيها الأعداء ، تماماً كما حدث في مدينة بئر السبع حين خرج أهلها برؤوسهم كأنَّما جاؤوا إلى الدنيا هكذا بلا مأوى ولا مال أو متاع!

وإني لأستعرض الآن في ذاكرتي صورةً لصباح ذلك اليوم الذي سقطت فيه بئر السبع في أيدي اليهود.

كان الناس في ذهول يشبه السُّكْر، وكان أكثر أهل المدينة يخرجون في الليل إلى العراء ، أو منازل البدو المجاورة ، يتَّقون قنابل الطائرات التي أخذت تُصَبُّ على رؤوسهم منذ أسبوع ، ثم يعودون في الصباح إلى بيوتهم ، فلما فتحوا عيونهم ذات صباح على الأمر الجلل ، ومعظمهم ممن لا يحمل إلا غطاءه الخفيف ، كانوا يتصرفون بدون وعي ، لا يريدون أن يُصَدِّقوا أن كل شيء قد انتهى ، وأنهم لا يستطيعون العودة إلى بيوتهم العامرة ، ومتاجرهم المتخمة بالبضائع ، فانتشروا في البطحاء إلى الشرق والغرب والجنوب ، يجرون أطفالهم على غير هدى ، ولا هدف محدود.

وكانت بقايا قنابل تُسْمَعُ أصواتها ، ودفقات من الرصاص ، وطائرات تفتش التلال والأودية ، وأنين هنا ، وصراخ هناك ، والشاحنات تصر دواليبها على الطريق العام من كثرة ما تحمل من البشر في اتجاه الخليل ، أو العوجا حفير. لقد سهرت القبائل جميعها تلك الليلة المشؤومة مع مدينتهم ، وشاهدوا-عبر السهول الواسعة-إشارات النجدة ، وسمعوا أصوات القنابل ، وتحركات

الجيوش، ومنهم من ينتظر مصير رجاله الذين يشتركون في الدفاع عنها، فلما أصبح الصباح، ورأوا شظايا الكارثة، أسرع المجاورون منهم إلى الابتعاد عن ساحة المعركة، وتحركوا بعيداً عن عاصمتهم التي طالما اشتاقت نفوسهم إليها، التياها والجبارات إلى الشمال الشرقي نحو الخليل، والترابين إلى الغرب، والعزازمة إلى الجنوب، والجنوب الشرقي، وشاركوا أهل المدينة مصابهم، وحاولوا التخفيف من مأساتهم، بنقل الأطفال والنساء اللواتي قصرت بهن أرجلهن عن السير، من العائلات التي لا تملك سيارة ولا راحلة.

وتحركت قوافل الجمال بالعرب المجاورين لبئر السبع إلى الجبال المقابلة لنقطة (الشرُيْف) من الشرق، في حين قطع البعض-كما قلنا-وادي الخلصة نحو السبيطة والمشرفة، والتفّت مجموعات من المسعودين، مع مجموعات أخرى من الصبحيين، والسواخنة في مسيل وادي حفير بين الجبال الوعرة، شرقي مركز العوجا.

كان البدو يتنَسَّمون الأخبار، ولا يزالون ينتظرون الفرج من خلال ضباب اليأس، وكان بعض عقلائهم لا يرون أن هزيمة العرب التي تمت في بئر السبع يمكن أن تكون بأيدي اليهود، لأنهم قد جربوهم، وعرفوا مقدرة المقاتلين منهم في المستعمرات، فكيف بالجنود العاديين، وكانت مسألة إشتراك أمريكا وبريطانيا وروسيا مع اليهود في احتلال بئر السبع أمراً مؤكداً في مجالس البدو آنذاك، وكان هذا الاعتقاد يترتب عليه عند البدو جواز الهروب من وجه الصراع غير المتكافىء بينهم وبين هذه القوات، عملاً بالحكمة البدوية القديمة (احفظ رأسك عند معارك الدّول) وشيء آخر كان يرادف هذا

الاعتقاد في رؤوس البدو، هو إمكانية العيش تحت سيطرة هذه القوى، وكان يقال : إنهم-أي الدول العظمى-لا يمكن أن ينزعوا الناس من وطنهم نزعاً، وبذلك لن يحرم البدو من ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة تماماً كما تم عند احتلال الإنجليز للبلاد في السابق، بعد خروج تركيا من هذه الربوع، وكان يقال أيضا في مجالس البدو : إنَّ الأمر لا يعدو أياماً قليلة، تتبلور فيها الأوضاع، وتنكشف فيها الحقائق، ويعود كلٌ إلى منزله وأرضه، ولكن الأمور تبلورت على غير ما يتوقع البدو، وتكشفت الحقائق عن غير ما يشتهون.!

ففي أوائل عام ١٩٤٩، تمكَّن اليهود بهجوم خاطف من الإستيلاء على (الشريف) وتقدموا سريعاً - مخلّفين عسلوج وراءهم - إلى العوجا حفير، حيث أحاطوا بها من جميع الجهات من ناحية بئر السبع (والملاقي) شمالاً وغرباً، وقطعوا الطريق إلى بئرين غرباً ثم وضعوا أيديَهم عليها في نفس الليلة. في ذلك اليوم قامت طائراتهم بضرب تجمّعات البدو بالقنابل والمدافع الرشاشة، وأيقن البدو أنهم (يهود) الألداء، وأن الأمر لم يكن للقوى التي ظنوا أنها صاحبة الهجوم على بئر السبع، بقدر ما هو لأبناء صهيون، ربما مع مساعدة خفية من الدول الكبيرة، وقتل في هذه الغارات ثلاثة أطفال وامرأتان، وجرح كثيرون من بين القوافل الهاربة، ويحدثك الناس عن الطريقة التي بدأوا يوارون فيها أمواتهم الذين يتساقطون على الطريق، ولا كفن، لا صلاة، كانوا في عجلة من أمرهم، يتخيرون جرفاً مناسباً يرمون الجثث فيه ثم يدوسون على حافته من أعلى إلى أن يتهدم، ويرمون ما تيسر من الصخور والحجارة فوق الردم، ثم يتمتمون بالأدعية على هذا القبر الغريب، ويعودون جرياً إلى أهلهم

مذعورين من هجمات الطائرات المتوالية ، ولما علم البدو بسقوط العوجا ، تحركوا إلى الشرق إلى جنوب شرقي رخمة ، وكان الزاد قد نضب أو كاد ، وكانوا يرسلون بعض رجالهم إلى المخازن تحت جُنْح الظلام ، فلما سقطت العوجا ، وأعلنت الهدنة بين المعتدين والدول العربية ، تأكد للبدو أن المرحلة ستطول ، وأنه لا بد لهم من ظهر يستندون إليه ، ولم يبق لهم مركز قريب يشترون منه حاجاتهم الضرورية ، ولم يكن أمامهم إلا التقدم نحو سيناء ، أو اجتياز الجبال الشرقية إلى الأردن ، ولما كانت سيناء (مهمه) لا تجود عليه السماء إلا نادراً ، آثر معظمهم التوجه إلى الأردن ، بعد أن أرسلوا طليعة من الرجال لكي ترود المكان المناسب ، وتستطلع رأي المسؤولين منه ، وعادت الطليعة بعد عشرين يوماً ببعض الضروريات والكسوة . يقول قائلهم : لقد وجدنا الرعب مخيماً على الناس ، والموت يرفرف على كل بيت ، ويمد مخالبه إلى كل عائلة ، وكاد الناس يموتون عطشاً بعد أن فقدوا مورد الماء في رخمة ولذلك قصة تشهد على مدنية اليهود الذين انحدورا إلينا من شتى أقطار الأرض ، فقد وضعوا السُّمَّ في آبار رخمة ، كان ذلك عند شروق الشمس ، وقد وقفت سيارة جيب على بعد ، وانحدر ثلاثة من المسلحين إلى الآبار ، وكانت خالية ، وشاهدهم أحد الرعاة وهم يضعون شيئاً لم يشك أنه السم ، ومع أن العرب قد تنبهت إلى هذا الشر ، فإنَّ أفراداً قلائل لم يصلهم صوت النذير ، فشرب بعضهم وسقى جماله ، ومات المرحوم (سليمان مسلم أبو شليوط) وزوجته وأولاده ، وأصيبَ نفرٌ آخرون بالعمى أو الشلل . ويضيف الراوي «لم يكن أمامنا وقت نضيِّعه ، فأهلنا جميعاً يوشكون على الهلاك عطشاً وجوعاً ومرضاً ، فتوجهنا نحو الخليل ، مع سلسلة الجبال الوعرة ،

نقطعها سفحاً ووادياً ونقباً، في رحلة شاقة ما أظنُّ أن أحداً غيري ممن رافقنا قد سار مثلها من قبل، حتى وصلنا بعد أيام إلى الجبال المتاخمة إلى قرى الخليل، وكانت معونات الصليب الأحمر قد بدأت تصل إلى الهلكى من اللاجئين، وأخذت الهيئات الدولية تنظم توزيع المعونات عليهم.

كان هذا الجمهور الذي وصل إلى جبال الخليل يتألف من عدد من العائلات، وقد ظلّت القوافل تصل تباعاً للحاق به حتى تكاملوا إلى ما يقرب من ثلث قبيلة العزازمة بأكملها، معظمهم من العشائر التي كانت تستوطن السهول المجاورة لبئر السبع.

وحين استقر الأمر لجيش الهاغناة، وتحصن اليهود بالضمانات الدولية واتفاقات الهدنة مع الدول العربية، بدا لهم أن يلبسوا جلد الثعبان الناعم لمن بقي من القبائل، فأمنوا قبيلة الظلام التي كانت طلائعها قد وصلت إلى قضاء الخليل، فعادوا إلى ديارهم وهم ما زالوا يعيشون هناك تحت ما نسمع من ألوان الظلم الذي يُصَبُّ على رؤوسهم، وكذلك فقد حاولوا التقرب لبقايا القبائل، فصدقهم البعض، وظل البعض الآخر على حذره وريبته ينتظر ما تنجلي عنه الأحداث!

وهنا يختار اليهود صنائع يحاولون بواسطتهم أن ينفِّذوا بسهولة ما يرسمونه من مخططات لأهل الوطن الأصليين، ويحاولون إقناعهم بالخضوع للأمر الواقع الجديد، ولكن الهوة أخذت تزداد اتساعاً بينهم وبين السادة الجدد، فارتفع الناس إلى الجبال الوعرة لم يتأثروا كثيراً - حتى تلك اللحظة - بمجريات الحوادث، اللهم إلا بُعد الأسواق وصعوبة الوصول إليها.

في تلك الأيام من عام ١٩٥٠ برزت على خطوط الهدنة أوضاع جديدة ، ودخل في قاموس اللغة ، وتعابير السياسة كلمات غريبة من مثل : التسلل والمتسللين ، وبدا أن الحكومات العربية ، والسلطات اليهودية حريصة على الهدوء على خطوط الهدنة في تلك الأثناء . وفي شمال العوجا ، وفي المنطقة الرملية الوعرة شكّلت فئة من البدو معظمهم من الترابين الذين لم يذعنوا للرحيل لقطاع غزة ، ولم يتناولوا ـ تبعاً لذلك ـ شيئاً من المعونات الدولية ، عصابة سموها عصابة (الكف الأسود) ، كان هَمُّ هذه العصابة أن تغير في كل ليلة على معسكرات اليهود ومستعمراتهم ، وعلى من بقي عندهم من البدو ، عقاباً لهم على ممالأتهم لليهود ، فعلوا ذلك على غير رأي السلطات العربية ، فأصبحوا بذلك خارجين على القانون في نظر العرب واليهود على السواء!

وكان اليهود يقومون بهجمات انتقامية ـ كلما أصابهم رجال الكف الأسود بضربة موجعة ـ على غزة أو دير البلح أو خان يونس وعبسان ورفح ، وفي نفس الوقت يرسلون الطائرات والدوريات تفتش عن أعضاء هذه العصابة في الكثبان الرملية ، شمال غربي (القرن) في رملة العجرة ، ولكن أولئك الرجال تعلموا مع الزمن كيف يزوغون كاليرابيع عن الطائرات ، وتعلموا كيف يتصيدون الدوريات اليهودية في كثبانهم كالأرانب ، ولما كان نجاحهم في المقاومة والهجوم قد يغري غيرهم باللحاق بهم ، مما يمكن أن تشكل معه نواة من اللاجئين للدفاع عن وطنهم ، وهو الأمر الذي لا يمكن أن تتسامح معه دولة إسرائيل ، فأصبحت هذه العصابة لذلك مصدر خطر كبير يهدد أمن الدولة الجديدة وسلامتها ، وانشغل شيوخ صهيون طويلاً

بالتخطيط لحصرها والقضاء عليها.

ومرة أخرى نقول : إن هذا ليس تاريخاً لهذه المجموعة، ولكن الرجاء قائم من أجل العودة إلى هذا الموضوع لنوفيه حقه من التفصيل، كظاهرة (فجّة) لمقاومة المحتل، ذات دلالة بعيدة لو أمكن استغلالها، ومساندتها وتنظيمها في تلك الأيام البعيدة.

كان اليهود يعرفون أن البدوي أقدر على قتال بدوي آخر من غيره، ولهذا فقد اتجهت أنظارهم إلى استغلال شراذم من الذين استقروا في المنطقة المحرّمة، وخلق خلافات بينهم وبين جماعة الكف الأسود، وخاصة إثارة القبائل ضد بعضها بعضاً في المنطقة ذاتها، ليتخلصوا من هؤلاء وأولئك في آن واحد، وربما استطاعوا نقل النزاع إلى مناطق مجاورة ليظفروا تحت ظله بمكاسب مادية أو معنوية جديدة.

غير أن عقلاء القوم فطنوا إلى هدف اليهود وصنائعهم، وفوتوا على الأعداء تدبيرهم، ولقناعتهم بأن ليس لليهود حق في الاتصال بهم أو الإشراف عليهم وهم في تلك المنطقة التي يشرف عليها جنود الأمم المتحدة، فاستمروا في مدابرة رسل اليهود وصنائعهم، وفي الاستقرار في أراضيهم في تلك الأودية شرقي عوجا الحفير، إلى أن كان ذلك اليوم.!

* * *

كان اليهود قد جلبوا (تراكتورات) من بئر السبع بحجة حراثة أراض لهم في ساحة وادي حفير عند القرية القديمة، وأسسوا هناك بدون حق مخيماً كبيراً تحت سمع وبصر رجال الأمم المتحدة، وبعد

أيام تحرك ذلك المخيم (المسالم) إلى الشرق، وجاءت دورية يهودية من جهة عسلوج، والتقى أصحاب (التراكتورات) مع هذه الدورية فكي كماشة على عرب المنطقة المجردة غربي السبيطة عند (طارة الشنار).

كان الليل في آخره والشمس يزحف نورها من الشرق، في تلك الساعة التي يأوي فيها الكلب إلى مراحه، وترقد الهوام عن الحركة، إلا أن رجال العرب كانوا في تمام اليقظة، وكانت الديكة تصيح كأنما لتوقظ النيام منهم!

ومنذ ذلك اليوم الذي انفجرت فيه المأساة في بئر السبع، كانت كل عرب تضع من رجالها رقيباً، أو طليعة، أو حارساً بالليل، كأنما هي في لغة الحرب في وضع (استعداد)، وفي تلك الليلة سمع الرقيب حركة السيارات وأنوارها، ربما من أول تحركها من عسلوج والعوجا، فانسل يوقظ الرجال واحداً بعد الآخر خشية أن يكون في الأمر مكروه قد يصيب (عربهم)، فلما رأوا من بعيد وجهتهم، صح عندهم هذا الظن، وعلى عجل وضعوا الرحال على الجمال، ونقلوا الأطفال والنساء، وقبل أن يبدأ الهجوم كانت قافلة (الضّعوف) «وهم الأطفال والنساء» خارج نطاق دائرته، متجهة إلى الجنوب مع مسيل الأودية المجاورة، وظلت بقية الجمال والأغنام هاجعة في مراحها، وكان البدو على استعداد لمجابهة الهجوم، وفعلاً فقد تصدى القناصة للدورية القادمة من الشرق، فعلا صراخ أفرادها، وقيل: إن ثلاثة قد قتلوا منهم وولت الدورية مدبرة، أما أولئك الذين قدموا من العوجا، فقد وضعوا جرّاراً على جانبي مسيل الوادي الذي لا طريق (للسرح) ولثقل العرب في تقديرهم غيره،

وهنا يتجلى ذكاء البدو ومقدرتهم على التصرف في المعركة ، ففي الوقت الذي كان عدد منهم يزحف فيه غرباً ليحيط باليهود من الغرب . كانت مجموعة أخرى مشغولة بحمل الأثقال وتجميع الإبل ومن ورائها الغنم ، وفي اللحظة التي بدأ فيها الرصاص ينطلق على كمين الجرار تحركت نحوه تحت غبش الظلام سحابة سوداء من الإبل والغنم في حركة خاطفة ، ترك اليهود معها أسلحتهم ولاذوا بالفرار كل يتقي بحفرة أو صخرة أو جرف ، ولم يهدأ روعهم إلا وغيمة الجمال والغنم والأثقال قد اجتازت الأفق الى الغرب ، والرصاص أصبح ينهال عليهم من تلك الجهة ، وأفلت البدو في لحظات خاطفة من فخ كان قد أعد بإحكام لإفنائهم . !

لقد حمل القوم جرحاهم ، ولفظ أنفاسه بين أيديهم واحد من عائلة «الزول» ومضى اليهود يحملون جرحاهم وقتلاهم ، وسقط على الطريق أربعة جمال ، والتقى ظعن النساء والأطفال مع حماة السرح وراء التلال شرقي عوجا حفير ، وحط الجميع الرحال عند (الصبحة) شمال بيرين وعلى حدود سيناء تحت حماية نقطة أمامية مصرية متمركزة هناك!

لقد سمع رجال هيئة الأمم المتحدة المقيمون في مركز عوجا حفير انفجارات القنابل اليدوية ورنين المدافع الرشاشة ، في ساحة تلك المعركة التي لا تبعد عنهم إلا أميالاً قليلة في حدود المنطقة التي يشرفون عليها ، ورأوا بأعينهم شارات النجدة تعانق أشعة الصباح ، وأكبر الظن أنهم لم يسجلوها في أوراقهم الرسمية ، ولم يأتوا لها على ذكر ، كحادثة من حوادث الشغب في تلك المنطقة (المضطربة) ، أو باعتبارها حملة تأديبية ضد هؤلاء (الخارجين) على القانون هدفها

الأول والأخير الاستقرار والأمن الذي ينشده اليهود، ورجال الأمم المتحدة، والحكومات العربية كذلك. ولقد ظل ذلك الاضطراب الذي يثير القلق في نزلاء العوجا حفير وضيوفها الغرباء حتى أخليت تلك البقعة كلياً من أهلها، ووضعت إسرائيل حمايتها على المنطقة (المحرّمة)، وسلّم رجال الأمم المتحدة مفاتيح تلك البنايات (التركية) الضخمة إلى جنودها، وسكنت منطقة العوجا حفير، والقرن ووادي الأبيض وبئر الملاقي سكون الموت...!

* * *

لم ينم اليهود على الثأر من أولئك الرجال ولم يسكت عن اليهود رجال الكف الأسود الذين ازدادوا بعد تلك المعارك ضراوة وقوة، وكذلك فقد انحدر شباب من العزازمة المعتدى عليهم يتصيدون اليهود وعملاءهم بتصميم وإصرار، واتخذ بعضهم من منازل السراحين في جبال (خراشة) موطناً مؤقتاً، ليؤلفوا في الجنوب عصابة نغير على الأعداء تشبه عصابة الكف الأسود في الشمال.

ولم يطل الوقت بهم طويلا عند (الصبحة)، ففي أوائل عام ١٩٥٢ وتحت سمع رجال الأمم المتحدة وبصرهم نظم اليهود هجوماً آخر بالدبابات والمصفحات على مخيم العرب الذين أفلتوا من هجوم طارة الشنار، وعلى المركز المصري في آن واحد، وكان هجوماً مركزاً تدعمه الطائرات، لم تجد معه المقاومة الشجاعة المقاومة التي أبداها المركز المصري بتغطية اعشاشهم بالنار، إذ أن أسلحة البدو الخفيفة لم تكن لتجدي في مواجهة الدبابات والمصفحات التي انحدرت مع طريق العوجا ـ بيرين من عند نقطة مراقبة الهدنة، فاجتاحت هذه القوة منازل البدو في لحظات، ولم يرحم اليهود أحداً وقع في أيديهم

فقتلوا النساء والأطفال وفر من بقي منهم كهوام الأرض بين الصخور (والريضان)، وبعد أن ارضى الأعداء نقمتهم، وأطفأوا عطش حقدهم، انسحبوا في هدوء، فيعود البدو تحت بقايا نور من الشمس التي غابت واختفت وراء طارة (العمرو) ليروا اشلاء أطفال طحنت طحناً تحت جنازير الدبابات، وليروا الصرعى من كبارهم ومنهم سليمان أبو ذخاير، وعيد بن حميد، وسليمان أبو سكيوه، ولو كان البدو يعرفون شيئاً من أصول الدعاية، وفوائدها لأبقوا تلك الأشلاء تتفشى نتناً وكراهية ضد مدنية القرن العشرين، ولكنهم لا يعرفون ذلك، فكان كل همهم أن يواروا في سرعة خاطفة الجثث الممزقة، ويغطوا على هذا العار الإنساني بمواراته في التراب، وسرعان ما بدأت الفؤوس تلمع في الظلام، وفي لحظات قليلة يرتفع القبر تراباً وحجارة، وماءً يرش من فم الجرة فيسمع لاندلاقه صوت كهدير الجمل، وكلاب تعوي في نواح حزين، وطلقة طائشة تمر من هنا ودفقة رشاش من هناك، وهدير الدبابات يختفي قليلاً قليلاً، والرجال منكّسوا رؤوسهم في صمت، ويطلق كل واحد منهم أدعيته في همس، وينهض أحدهم فينهض الباقون، ويرتفع صوته في سكون الليل: الله أكبر...!

لقد حفرت تلك الواقعة عميقاً في نفوس البدو، وتسامع بها سكان الأودية والجبال في المنطقة، وكان لها آثار مختلفة في النفوس طبقاً لاستعدادها وصلابتها، فمن الناس من كان أثرها في نفسه هلعاً وجبناً وخضوعاً لهذه القوة التي لا تقاوم، ومنهم من كان أثرها في نفسه مزيداً من الصلابة والحقد وطلب الثأر.

والبدو يلملمون بقايا الخيش، ومزق الأمتعة، ويرشون الحصى والتراب على الدماء التي ما تزال نفاذة الرائحة، تجتذب

الذباب والهوام ، ولم يستقر بالهم على جهة يقصدونها بعدُ ، وعند مسيل الوادي على طرف الأطلال التي كانت بالأمس مخيماً عامراً ، نشر بدوي عباءته على الصعيد الطيب ، وألقى بيديه على التراب ، (يتيمم) ثم كبّر في صوت مسموع ، وأخذ (يتمتم) بالصلاة ، فلما وقف في الركعة الأخيرة رفع يديه إلى السماء وبدأ يدعو ، ومن بين الدموع التي سالت على لحيته الكثة ، أخذ الشيخ عيد بن عتيقه يتطلع الى الأفق البعيد ، ويرتفع صوته قليلاً قليلاً ، تستطيع ان تتبين بوضوح كلماته : الظلـم والكفر ، قتلة الأطفال الرضع ، والبهائم الرتع ، ثم أخذ الصوت يرتفع ، ليبلغ الصراخ باللهجة البدوية الساذجة (إحنا ضعاف إحنا قلائل ، وين . . . وين . . . أنت يا الله . . !!)

ويمر ظعن الحطام من جنبه ، لا تكاد تسمع لأخفاف الإبل صوت ، فيتناول عباءته في هدوء ، ويلبس نعاله في أناة ، ويحمل بندقيته (التركية) الطويلة التي رافقته أكثر من ثلاثين عاماً ، ويضمها إلى جنبه كأنما يضم حبيباً لا يحب أن يفارقه لحظة من زمان .

ويمضي الركب إلى الجنوب إلى حيث جبال أكثر وعورة ، ومنازل أشد منعة ، ويمر بعين القديرات تلك الواحة الخضراء ، في تلك الجبال اليابسة ، فينزلون بجانب الوادي يستريحون ويستقون ، ويلتقي بهم أصحاب الحقول الذين يستغلون العين الجارية ، في زراعة أشجار الزيتون والفواكه ، وهم سكان قرية (القصيمة) من أهل العريش بمحافظة سيناء ، يلتقي بهم هؤلاء فيرق الناس لبعضهم بعضا ويتبادلون التعازي والدموع ، وينصحون الركب بأن يميل إلى (القصيمة) في ظل الدولة ومنعتها ، وبين إخوان من أهل القرية ، لا

يقلون عنهم تأثراً لما حدث لفلسطين، وبراً بأهلها، فيميل الركب إلى التلال المجاورة جنوب شرقي القصيمة، ويتبرع سكان القرية الفقيرة بأكثر ما عندهم من أكياس الخيش وما تيسر من الدقيق، وظلت الطريق تحمل كل يوم نزيلاً جديداً يضم إلى المخيم البائس، ويتسامع الناس في سيناء وغزة بألوان جديدة من المآسي، وكان الحديث عن قطارات الرحمة يملأ الأسماع في تلك الأيام، فأرسل جانب منها إلى القصيمة لنجدة سريعة إلى العرب المنكوبة ثم أصرت السلطات على وكالة الغوث لتقديم الإعانة لهم، وفعلاً جاء رجال وكالة الغوث للإحصاء وأرسلت إعاشة دورية منظمة!!

وتلقفت جماعة الإخوان المسلمين ـ وكانت في ذلك الحين في أوج نشاطها ـ أولئك اللاجئين يرشدهم وعاظها وخطباؤها ويقدم لهم رجالها الخدمات الطبية والتعليمية.

وفعلاً أسست الجماعة لهؤلاء البدو مستوصفاً طبياً ومدرسة ومسجداً يقدم فيه ما تيسر من العلاج، وضمت المدرسة مجموعة من أذكى الأطفال وألمعهم، قدر لهم فيما بعد أن يواجهوا أشد المآسي، وأفظع المكاره، ولقد كانت أضابير الإخوان المسلمين في العريش تضم أسبوعيا تقارير عن الحالة الصحية والتعليمية والتنظيمية عن بدو العزازمة، وكانت تلك التقارير تتحدث أكثر ما تتحدث عن ضراوة مرض السل الذي بدأ يفتك بأجسام هؤلاء الجوعى فتكاً سريعاً وكان المرضى الذين تسوء حالتهم يحالون الى مستشفى الجماعة بالعريش، حيث يلقون عناية أفضل وعلاجاً أجدى، وبدأ القوم يتحدثون كثيراً عن رابطة الإسلام وأخوة الإسلام، ومن ثم عن الإخوان المسلمين.

هذه العلاقة القوية بين مهاجري القصيمة والجماعة ، وتلك الروابط التي سيظهر صداها بعد قليل ، سيكون لها في حياة العزازمة نتائج مؤسفة لم تخطر قط ببال البدو ، وستؤثر في موقف السلطة نحوهم في ظروف ومراحل قادمة!

* * *

على ربوة صغيرة في أحضان الأودية من الشمال والجنوب والغرب ، وعلى الطريق الطويل الذي يمتد بين العوجا حفير والمرشرش على شاطىء العقبة توجد هذه القرية التي (أطنب) عليها العزازمة والتي تسمى القصيمة .

مسجد عال نظيف ، على دمنة من الآثار القديمة ، وبيوت تعد على الأصابع ، ومركز للبوليس بجانبه نخلات تعانق القمم ، كعود القرنفل زينة في (صدر) تلك الجبال الشهباء ، ونبات الحلفا من حولها كجلود القنافد الأسطورية ، والأرض الملحة تنضح بالماء ، والعين الثرة تسقي الواردين من أهل القرية وجيرانها ماءً زلالاً يحمدون مذاقه من عشرات الأميال .

وسكان القرية يعدون فوق المئة ودون المئتين يعملون بالتجارة في متاجر نظيفة ومرتبة ، وهم اما من أهل القرية أو المدينة ، الذين مارسوا حياة البادية وتخرجوا في مدرسة عاداتها وتقاليدها ، أو من أهل البادية الذين عاشوا في المدينة وأخذوا علماً بمجمل الحياة فيها ، ليؤلفوا جميعاً مجتمعاً فريداً على الحد الفاصل بين البدو والحضر ، مجتمعاً كريماً نظيفاً تحب أن تعيش بين أفراده إلى الأبد .

ولا غرو أن اندمج اللاجئون الجدد في هذا المجتمع اندماجاً

كلبًا ، ومنهم من كان له بهم معرفة سابقة لجوار في أرض أو شركة في تجارة ، ولقد ظل الضيوف يذكرون للقصيمة صنعها ، على كثرة ما توالى عليهم من المعونات فيما بعد ، يذكرون تلك الشوالات الفارغة من الخيش والأمتار القليلة من الخيام ، التي تبرع به أهلها ، واذا قدر لأحد أن يدخل تلك البيوت (الهوائية) البائسة ، قيل له : هذا (بيت فلان أو فلان) من سكان القرية عرفاناً منهم بذلك الجميل!

* * *

كان ضباباً كثيفاً من الذهول يغلف عقول ذلك المخيّم وأفكارهم ، فاذا نادى منادي الإخوان المسلمين للصلاة هرعوا إليه شدّاً ، يصلّون ويستمعون للدرس ، وتسربت إلى نفوسهم معاني لذيذة سامية عن فضل الشهادة وكرامة الشهداء ، وكان من بينهم شباب في الخامسة عشرة والثامنة عشرة قد نالوا حظاً من العلم ، وقسطاً من الثقافة ، وعاشوا في أحضان المدرسة قبل أن يدمرها الغزاة ويرمون عن حياضها جياعاً ظامئين للعلم والمعرفة .

هؤلاء الشباب عينوا مدرسين في المدرسة أو عرفاء على أترابهم ، وبقي الشيوخ أصحاب الكلمة المسموعة ، ولكن مجلسهم كان أبكم ، لا تسمع فيه كلاماً إلا ردّ السلام والا زفرات عميقة يطلقها هذا الشيخ أو ذاك ، كأن صدورهم قدر تغلي لا يخف هديرها ولا يبرد لها جمر .

كان زوار القصيمة في ذلك الحين من الغزباء من المشفقين ، أو المغامرين ، أو صرعى حب الاستطلاع ، لا يقفون طويلاً عند بيوت القرية إلا بمقدار ما يعرفون وجهة المعسكر المجاور ، فإذا وصلوا إلى قريب منه تطلعوا إلى القمم المجاورة رأوا عليها خيالات سوداء

جامدة أو متحركة ، فإذا سألوا عنها ، قيل لهم : إنهم بعض الرجال والشباب ، يتنسمون الهواء العليل ، ، بعيداً عن (بصّة) القصيمة ، وروائحها التي لا يطيقونها ، فإذا كان الزائر نشيطاً وتسلق التل المحصور القاعدة ، ليرتفع الى السماء كالصاروخ ، ووصل إلى تلك الخيالات السوداء ، وجدها رجلاً أو رجالاً (ينكفئون) على أنفسهم كنصف الدائرة ، حول جمرات من النار ، يكوون بها غلاييهم ، ورجالاً آخرين يتطلعون إلى القمم البعيدة يتلاحون ويتجادلون ، ويؤشرون : (هناك . . . جبل القرن ، وهناك إلى الشرق رخمة . وهنا جبل عزيز . . . وأقرب طريق إلى الخلصة ، وآخر مستعمرة قريبة أسسها اليهود . . !)

وواحد من بين الرجال يندفع في الكلام ، يحدث نفسه قبل أن يحدث الحاضرين ، «البيت أبو ثلاث (رفّات) ترى ماذا يفعل به اليهود ، هل يسكنون بيوت الشعر ، لقد نسيت البكرج و(النجر) في طواياه ، وذخيرة أمي والله ، يا إخوان ، خمسون (عسملي) ـ أي جنيه تركي ـ العجوز كانت تخيّط مخزنها جنب (الواسط) وتلك السّنة خزنت ثمانين قنطار شعير بس ، يا سبحان الله على (زرّيعة) البطيخ الأمريكاني ماله قشر يا جماعة ، ما أظن اليهود يعثرون على المخزن . . . آه . . والبايكة (أي بيت الحجر) هل تظن اليهود ينسفونها يا أبا سليمان . . .»!

ويلتفت المتحدث إلى شيخ في الحلقة ، فتصوب إليه عينان كعيني الصقر ، ألا تكف عن الهذر يا سالم ، اسكت ، هل أنت وحدك الذي ترك بيته ومخازنه وذخيرته . اسكت لو كنت تستحق كل ذلك ما فاتك ولا تتركه . . .)

ـ فيجيبه هذا: (ولكنهم الرّوس، رأيتهم بعيني، وأمريكان، وحياتك وإنجليز كمان، وطيارات يا أبا سليمان، ودبابات، كيف تقابلها بـ (هالمسامير)، والله لقد رأيت رصاصنا يقع على جوانبها كالبصاق!)

ـ اقول لك: (اسكت يا سالم) الأرض عرض، والوطن دين وإيش حياتك بدون عرض ولا دين. فيتنحنح آخر ليطلق بيتين من شعر البدو:

لا بد ما البدوان تغدو على قاف
ولا بد ما الحضران تقفل البيب
ولا بد ما بيصير كون ملازم
والدم يضبح كيف وجّ الشعاليب

* * *

على مثل هذا كان سكان معسكر القصيمة في الأشهر التي تلت بعد معركة (الصبحة) من عام ١٩٥٢، دروس وذكريات ومعونات لا تكاد تسد الرمق، ومريض يعاني سكرات الموت، أو مصاب انتقض عليه الجرح، وآذان تصغي إلى ما يقول الراديو أو يتحدث به الخطيب، لقد كانت فترة الهدوء النسبي والانطواء على النفس، وتبادل الآراء وإطلاق الحسرات:

وهنا يحسن بنا أن نلقي نظرة خاطفة على ذلك القطاع من قضاء بئر السبع بكامله، في هذه الفترة الهادئة من أوائل عام ١٩٥٣.

لقد تكامل ضيوف القصيمة من العزازمة حتى بلغوا (٥٨٧٠)

ـ فيما أذكر ـ في سجلات الإغاثة ، وشمال شرقي القرن قرب الخلصة توجد عرب تضم أخلاطاً قليلة من بقايا عشائر العزازمة ، وغيرهم من الانتهازيين والغرباء الذين كانوا يعيشون في كنف القبيلة وحمايتها ، وعند بئر (بن تركيه) توجد مجموعة أخرى صدّقوا وعود اليهود بأنهم سيعيشون أحراراً سعداء في أرضهم في حماية الدولة الجديدة ، وفي الأودية شرقي عسلوج والشّريف لا تعدم أن تلاحظ بيتاً من الشعر هنا وآخر هناك ، لم يصطدموا باليهود ولم يوجه اليهود لهم غارات معينة حتى ذلك الحين ، وهم يحاولون تحسين العلاقات تحت مظلة السيطرة اليهودية في نفس الوقت الذي تظل الصحراء ومسالك الجبال مفتوحة أمامهم للفرار .

أما عشيرة العصيات أو غالبيتها على الأقل ، وعشيرة السراحين بشقيها : سراحين الاتيم ، وسراحين بن سعد ، فقد كانت في معاقلها الحصينة في رأس خراشة وفي شمالها الشرقي ، بعيداً عن السيطرة الإسرائيلية .

هذا بالنسبة للعزازمة اما بالنسبة للقبائل الأخرى ، فقد تمركزت عشائر الظلام بمنازلها حول بئر الملح أو شمالي رخمة ، وبقايا عشائر من قبيلة التياها ، من القديرات وعشيرة الهزيل تحت سيطرة المحتلين ، ولعل اليهود لو أرسلوا سائحاً في ذلك الوقت يطوف بمخيمات العرب الذين سماهم اليهود بالبدو (الإسرائيليين) لأحس بالمرارة والمذلة والهدوء القهري بسبب الارتباط بالأرض مورد العيش الوحيد ، وعلى الرغم من هذا الهدوء فإن المنافذ التي تقود إلى القصيمة أو إلى الأردن ، كانت آهلة ساعات الليل بالقوافل المارة سراعاً ، الهاربة من حياة الرعب والقلق تحت سيطرة المحتل ، إلى

حيث ما تعتقد انه الأمن والسلام!

وعلى الطرف الغربي من خطوط الهدنة، في المنطقة المحرمة ما زالت السيطرة لعصابة الكف الأسود، وقد شمل الهدوء منطقتها كذلك، حيث كانت السلطات المصرية تفاوضها على السكوت، ولكنه هدوء الترقب واليقظة من الجانبين، غير أن جدالاً عنيفاً كان يدور في مجتمعات القبائل جميعها في المنطقة المحتلة وفي القطاع المنزوع السلاح، وفي جوار القصيمة على السواء، هذا الجدال كان يدور حول تسليم من سلم لليهود، هل يجوز له ذلك أو لا يجوز، وهل يكون الأفراد الذين سلموا حكمهم حكم الأعداء أو لا يكون، جدالاً سنرى نتائجه العملية وعواقبه الوخيمة بعد حين.

في فترة الهدوء هذه التي سادت الحدود أوائل عام ١٩٥٣، كانت تدور كما قلنا مجادلات بين القبائل حول من بقي مسالماً من عشائرهم تحت سيطرة العدو، وكانت تدور إشاعات خطيرة تماماً كما تدور في أيام كثيرة تجلت عن حلول مرتقبة لقضية فلسطين، حلول تشمل بالطبع أراضي بئر السبع وممتلكات أصحابها.

كان الكلام عن التسليم للعدو بالسيطرة ومسامحته في جرائمه، شيئاً منكراً في ذلك الحين في عقول هؤلاء الرجال وغيرهم من أفراد القبائل الأخرى، وكانت مجموعات قليلة من التي كانت تقصد القصيمة من الشمال، قد آثرت أن تبقى قريباً من حدود سيناء، ومع الزمن مل الشباب من المعسكرين قرب القصيمة حياة الركود والكسل التي يحييونها في انتظار فتات الموائد، وفضلات المعونات، فتسرب أكثرهم إلى جبل (عزيز) المتاخم للصبحة (عزابا) لا يملكون إلا بنادقهم وإلا كيساً من الخيش من لون الصخور، يرفرف على

رؤوسهم مع نسيم الصباح، وعواصف المساء، اللهم إلا ثلاثة منهم رافقتهم زوجاتهم الشابات، كن يتولين الطهي وجمع الحطب، ويشاركن أحياناً في حمل البنادق وإطلاق النار، أكثرهن جمالاً وشهرة صبحة بنت سلمان زوجة عياد من أقوى رجال المجموعة وأشدهم بأساً!.

كان هؤلاء الشباب يحملون مفاهيم وآراء يمكن اعتبارها جديدة عليهم بالنسبة للحرب، والاستشهاد وقتال اليهود والتعاون فيما بينهم، لقد آتت دروس وعاظ الإخوان المسلمين أُكلها فكانوا يحملون المصاحف لا يتركونها في الليل والنهار، والذي لا (يفك) الخط منهم يحاول جاهداً أن يتعلم أكثر، وكانوا قدتعلموا كذلك شيئاً من النظام وتكتيك الحرب وفنون خداع العدو، فكانوا والحق يقال فيما عدا عصابة الكف الأسود، الجماعة الوحيدة المنظمة والتي يحكمها الدين والأخلاق في تصرفاتها، وسموا أنفسهم لأول مرة فيما أذكر بـ (الفدائيين).

ولا شك أن هؤلاء الشباب لم يأتوا إلى جبل (عزيز) لإعادة حياة الركود والكسل التي فروا منها في القصيمة، ولكنهم جاءوا ونفوسهم ملأى بالإيمان بالعودة إلى وطنهم، وقلوبهم مفعمة بالرغبة بالاستشهاد وحب الثأر من العدو المغتصب، وكان لا بد لهم بهذه السياسة الجديدة ان يستعدوا للمعركة وأن يزنوا إمكانياتهم بالنسبة لإمكانيات أعدائهم.

العدو يملك الدبابات، فليعتصموا أبداً بالأرض الجبلية الوعرة، وليكونوا أشد حرصاً على عدم مواجهته في الأرض السهلية، والعدو يملك الطائرات، ويملكون هم المخابيء، والمعرفة بطبيعة

الأرض في أشد الليالي حلكة وظلاما.

وكانت المعركة التي قدروا الانتصار فيها بدون خسائر، هي قطع مواصلات العدو ونسف سياراته، والاعتصام في الجبال بعد ذلك، ولكي يتم لهم النصر كاملاً، كان لا بد لهم من توحيد جبهتهم، جبهة المناوئين للعدو، فأرسلوا اثنين من رجالهم إلى جماعة الكف الأسود، لإقامة حلف فيما بينهم وبينها، وفعلاً قابلوا ثلاثة من عقلائهم، وأبرموا اتفاقاً تهبُّ بموجبه كل جماعة لنجدة الجماعة الأخرى إذا ما هاجمها اليهود، وان لا تتعدى إحداهما على منطقة نفوذ الثانية، وأن أي خلاف يبرز بين أفرادهما يكون فضه بالطرق السلمية والقضاء البدوي!!

لقد كان الحديث بين الطرفين شرقي بئر الملاقي عاطفياً ومؤثراً لقد كانوا يرددون عبارات العدو والخونة والأرض التي خلفها الآباء والموت في سبيل الله، في صورة قد لا تدري عنها عصابات الهاغناة ولا تصدقها هيئة الأمم المتحدة التي أقرت أن قبائل بئر السبع مجرد أعراب لا فرق عندهم بين أرض وأرض إلا بقدر ما توفر الكلأ لأنعامهم.

كم كنت أتمنى أن يحتفظ بتسجيل للأحاديث التي دارت في ذلك الاجتماع البسيط ليكشف دخيلة أولئك المتسللين في مفهوم إسرائيل، وأولئك الخارجين على القانون وقطاع الطرق في عرف السلطات العربية، والأعراب المتجولين في مفهوم الأمم المتحدة..!!

ترى لو كان ذلك الاجتماع مكبراً بين دولة عربية وأخرى، أو

الدول العربية كلها ، ويسيطر عليه نفس الإخلاص والصدق ، ويملأ نفوس أصحابه ذات الإيمان والتصميم ، ماذا كان سيحدث لدولة إسرائيلية ولحاضناتها على السواء؟

ولعل ذلك الاجتماع بين مجموعة العزازمة والترابين كان الاجتماع الإيجابي الأول والوحيد ، الذي يقصد أصحابه الثأر على قدر إمكانياتهم من العدو ، ومحاولة استرجاع الأرض المسلوبة وغسل العار ، عن العرض والكرامة وتاريخ الأولين!!؟؟

تعلم الشباب في ذلك المعسكر استخدام المواد الناسفة ، وتعلموا فك الألغام من بقايا الحرب الفلسطينية ، وتركيبها مرة ثانية بالكيفية المناسبة لتفجيرها بالضغط وبالأسلاك ، ولا يذكر أن واحداً من أولئك العصبة تضرر من فكّها أو تفجيرها ، وكانت مهارتهم في استعمال الألغام والتمويه في دفنها على الطرق ، مضرب الأمثال في البادية ، وأضافوا بذلك إلى مهارتهم في الرماية سلاحاً جديداً في المعركة وهو السلاح الذي سيضج منه اليهود ويتألمون .

انطلق الشباب لأول مرة في أواخر خريف عام ١٩٥٣ من معسكر «عزيز» ثلاثة ، أو خمسة ، كل مجموعة معها «لغمها» ومعها أسلحتها يحمل كل واحد منهم «قربة» صغيرة للماء ، ومقدار كيلو من الدقيق ، وجهتهم المستعمرات والطرق الفرعية المؤدية إليها ، وفي الليلة الثانية أو الثالثة يعودون كالأشباح يتحدثون عن السيارات التي نسفت أو اللغم ، الذي «نفّس» ولم ينفجر ، أو يتحدثون عن الطريقة التي طهوا بها قرص الملّة ، وثلاثة منهم يخفون سنا النار لئلا يكشفهم نورُها للأعداء!

كان رد الفعل في الحركة الأولى شديداً في معسكرات العدو

ومستعمراته ، وكان لا بد له أن يضرب حالاً وبسرعة لكي يؤدب المغيرين ، ويقضي على حركتهم في مهدها ، ولكن رجال العشائر على الخط الغربي حول العوجا حفير ، قد تعلموا مع الزمن طرق العدو في الغارة والانتقام ، فحالما رجعوا إلى أهلهم تحصنوا بين الصخور في أعالي الجبال ، وتمركزوا متفرقين في جبال «الجايفة» و «صرام» قريباً من حدود سيناء وعين قديس الى الجنوب!

وكانت هناك أربع عائلات لا تزال ترعى غنيماتها في أوعر بقعة في هضبة «الصبحة» ، وفرّت ثلاث من تلك العائلات ببيوتها وأغنامها إلى الأماكن الحصينة ، وبقي الضرير الزول الأرمل وبناته يتيمات الأم يجمعون خيشهم ويحملون أمتعتهم على ناقة تسمع رغاءها يتجاوب في الأودية ، وفجأة تطوقهم السيارات الخفيفة المصفحة ويحيط عساكر الهاغناة بالرجل وبناته!!

كانت البنات يصرخن طالبات الرحمة للوالد الضرير «لم يبق لنا أقارب ، ماتت العائلة كلها . . لا تكملوا على العائلة لا تقطعونا يا خواجة!! »

ولكن «الأعمى» يتقدم ، يقع في هذه الحجارة ويتعثر في أعمدة البيت الملقاة ، ويقول لهم . «مالكم بنا ، لماذا تلاحقوننا هكذا ، لقد تركنا لكم الأرض ، نحن لم نحاربكم ، ولا والله لو أردت ضرركم ما قدرت ، فأنا كما ترون أعمى ، لا أحسن مسك البندقية ولا قتل الرجال» قالوا له : قل لنا من هم الذين يغيرون من هم الذين تقيم لهم محطة هنا!؟ ، تقدم لهم الزاد والمأوى فيقول : أنتم تعرفونهم أكثر مني ، الحقوهم هناك ، إنهم لا يتسترون ولا ينكرون أسماءهم ولكنهم لم يفقدوا أبصارهم مثلي» . . !

وتختتم المسرحية في لحظات، هذا الأعمى أصل البلاء، كل الأولاد المجرمين السفهاء يصدرون عن رأيه وينطلقون بمشورته وتصوب الرشاشات والبنادق على الهدف الذي يتحرك على غير هدى، وفي لمحة يسقط جثة هامدة، وتسكت معه ناقته، وتميل على جنبها، فيختلط اللبن والماء مع دمها على الأرض فيشكل جدولاً صغيراً يلتقي بالدماء السائلة من الرجل الضرير، وتسكت البنات الصغيرات عن الصراخ والبكاء، وكن ثلاث أكبرهن في الثالثة عشرة، هي التي كانت تستعطف الدليل مع الخواجات، وتقبل الأرض بين يديه أن يترك أباها، وتزحف الطفلة مع أختيها لينمن على والدهن ويوسدن رؤوسهن بجسده، ولكنهم يمسكون بيد الكبيرة. قفي!! هذا جزاء أبيك، اذهبي إلى أخوالك وأعمامك، وقولي لهم: إننا لن نترك منهم «نافخ النار» إذا استمروا على إجرامهم، قولي لهم: ليقطعوا الحدود بعيداً عنا، ليذهبوا إلى الشرق، لن تسعنا الأرض مع هؤلاء المجرمين، أنذريهم أن الجبال لن تمنعنا من إبادتهم. وحدثيهم بما صار وما رأيته بنفسك!

وبنفس السهولة والخفة تحركت المصفحات وراء الهضبة، وتحركت معها الشمس إلى الغرب لتغيب على الضرير الشهيد، وعلى الناقة التي ماتت، وعلى البنات الصغيرات، بدأت مع مغيبها تزحف على قلوبهن أخلاط من الوحشة والرعب والغيلان والقتلة، في صورة يهون معها منظر الموت، ودماء القتيل التي ما تزال تلمع على أشعة الشمس الغاربة!

ولنقف قليلاً أمام هذه الصورة الفريدة من وحشية الإنسان، التي وصل إلى ذروتها الصهيونيون، حملة مشاعل الحضارة، وفؤوس

التعمير، وأدوات الموسيقى التي تقول بعض المجلات الأجنبية والتي توزع في الدول العربية: إنهم أقاموا في صحراء بئر السبع حضارة سحرية حالمة...

لنقف أمام هذه الصورة لأنها معقدة، لا يمكن كشف ما وراءها من حقد وشهوة للإنتقام إلا بعد روية وتفكير عميق!

لقد رأيناهم لا يرحمون الأطفال ولا يتحرجون من قتلهم كلما وقعوا بين أيديهم غنيمة باردة، رأيناهم من قبل دير ياسين وفي غيرها من معاركهم ضد الأطفال والنساء، فلماذا تركوا بنات الزول الضرير دون أن يوجهوا لهن بضع رصاصات من أسلحتهم التي لم يجدوا لها هدفاً يوجهونها نحوه بعد أن أفلت الصيد الثمين في الصخور البعيدة.

لقد كان قتل البنات الصغيرات رحمة لهن من البقاء مع الوالد القتيل والليل وخيال الناقة «الميتة المخيف»، لقد كانت رصاصات اليهود لو أطلقت على البنات هي العلاج المطلوب لهن في تلك الساعة الرهيبة، لقد فتشت كبيرتهن عن الموت، وأمسكت بحافة السيارة التي يركبها الدليل العربي، فوقعت على الحجارة بجروح ورضوض، ولكن الموت لم يصل، لقد طلبته من الخواجات: اقتلوني، اقتلوا أخواتي. لمن تتركوننا؟... حرام عليكم يا كفار.. وترميهم بالحجارة والشتائم، ولكنهم يبتسمون، كمن يرى الضحية تتعذب، فتلذ له لحظات عذابها!

لقد أخذت البنات حجراً أثقل ما قدرت على رفعه وضربت رأسها به، ووقعت بجانب والدها مغشيّاً عليها، وأختاها الصغيرتان

ينكمشن بجانب جثة والدهن، كأنه حي، وكأنه قادر على أن يهب لهن الحماية والدفء والعطف الأبوي. والليل يقبل، ليزيد مسرح الجريمة ظلاماً على ظلام، ويتسامع رجال معسكر «عزيز» بالطلقات مع العواصف التي تنطلق بين الحين والحين قادمة من كثبان الرمال شمالي العوجا، ويسمعون حركات السيارات، ولا يفرقون مع موجات الهواء بين صوت محركاتها ومحركات الطائرات، وكان أبعد ما يكون عندهم أن تكون تلك الطلقات على صاحبهم الزول، لأنهم قد أعطوا النذير لجميع البيوت «المنفردة» للفرار من المناطق السهلة، فأرسل قائدهم من يستطلع الخبر. فوجد أمامه جيران الزول، يضعون رحالهم في جرف مجاور، فسألوهم، فقالوا: والله ما ندري..! لقد شغل كل منا بنفسه، وبنقل رحاله وتركناه يحزم أمتعته كذلك، ولقد شاهدتنا البنت، وكان يمكنها أن تسير وراءنا.. انها تعرف دربنا... بنت «شاطرة»، ما «تتوه»، وكلنا سمعنا الطلقات ورأينا السيارات تحيط بهم، ففررنا كما ترون، لأننا لا نحمل سلاحاً بعد.. والله ما عندنا إلا هذه البندقية التي لا تخرج «الفارغ» والله ان كل فائدتها أنها تقول للمهاجم: «هذا صاحبي تعال فاقتله»!!

كل هذه الأعذار لم تسلم أصحاب الزول من اللوم والعتاب الشديد، والاحتقار بين الرجال، لقد اعتبروا مسئولين بإهمالهم عما يمكن أن يكون قد حدث وعائلته.. ولكن ما الذي حدث، لا يدري أحد حتى تلك اللحظة، وإن يكن الجميع قد ترحم عليهم صغيراً وكبيراً - بوحي من تجاربهم - قبل أن يصلوا إلى هضبة الصبحة، وقبل أن يروا ميدان الجريمة التي ارتكبها جنود «جيش

الدفاع» ضد الرجل الأعمى وبناته!!

وينطلق واحد من الجماعة، يتحزم في ثوب من الخيش، في رجله نعال من المطاط، من صنع يديه، من إطارات السيارات، يقفز كالأرنب على الصخور، إلى أن تجاوز الموقع شمالاً، ويتمدد ويكف عن التنفس، ولكنه لا يسمع شيئاً كل شيء هادىء إلا أنوار بعيدة وأصوات سيارات من سيناء، أو شمال شرق عوجا حفير، حتى إذا تأكد من خلو المكان من الكمائن أطلق صفيراً طويلا يدعو به أصحابه إلى التقدم دون أن يخشوا «كمين» العدو وغدره!

لقد كان الموت قد فرض نفسه على المكان في صمت أخرس، وكانت العصبة «الكشافة» تتقدم خطوات كأنما تتذوق الفجيعة قطرة قطرة. واحد يقول: هل تسمع اجترار الناقة يا سليمان؟ فيقول عواد: والله لو كانت حية لسمعنا «رغاءها» من مكاننا هناك! تقدم يا رجل! وهل يترك اليهود أحياءً وراءهم!

كانت النجوم تلمع في السماء فينعكس على حجارة الصوان شراراً أحمر تبدو في ذلك المكان الرهيب كعيون الغيلان، والناقة ممددة رقبتها، كأنما تتشمس في أيام الربيع، والبنتان الصغيرتان على مكانهن من حضن الوالد الشهيد، والكبيرة تحرك رجليها وقد أفاقت من غشيتها، فتسمع همس الرجال فتقفز، اقتلوني يا يهود، يا كفار!!

ولكن واحداً يمسك بها فتتهاوى بين يديه ليقول لها: انا سلمان يا عم، لا تخافي اليهود راحوا، لا تخافي يا عم، «إحنا عرب «إحنا» مسلمين»... ويأخذ منديله فيعصب مكان الضربة من رأسها

المنفوش ، وكان أحدهم قد أشعل ناراً خافته ليروا عليها بقايا ظعن الزول . . !

والرجل يلف في حرص الخبير منديله على مكان الجرح ، وبين كل طية وأخرى يمرر يده على مكان السابقة ، ويتمتم بدعاء ، والبنت «الكاعب» تردد في نواح حزين : آه . . يا حسرتي «إحنا عرب ، إحنا مسلمين . . !!»

* * *

ويرسل الرجال من يحضر لهم رواحل لنقل الجثة وبقايا البيت ، وكان أكثر ما يتجادلون حوله ، تلك الظاهرة الفريدة كيف ترك اليهود البنات على قيد الحياة ، وكانوا يتجادلون كذلك في إحضار «كفن» من القماش الجديد للشهيد ، فقد كان الرجل من خيرة عقلاء عشيرته وكرامهم ، وكان قد فقد زوجته وفقد أخاه شهيداً في معركة طارة الشنار ، وهم يعددون مناقب صاحبهم ويعددون «الخيرات» التي تركها بعيداً وراءه ، والشقاء الذي انتهى إليه فيقول أحدهم : يا جماعة ، ألا يستحق منا كفناً جديداً . ؟

فيقفز أحدهم : لقد سمعنا الدرس ، إن الشهيد لا يغسل ، ولا تنزع ملابسه عن جسده إن دماءه هي المسك ورائحته من أنفاس الجنة . . قوموا بنا لقد جاءت الإبل!

ويحزمون الجثمان في بساط قديم على جنب جمل قوي ، ويعادلونه ببناته على الجنب الآخر ، ويحملون البعيرين ما بقي من متاع وغذاء ، ويجد أحدهم بقية ماء ولبن فيصبه غصباً في أفواه البنات ، ويخلفون المكان وراءهم لا يفرقه عما حوله إلا الدماء وأثافي

القدر، وإلا الناقة التي نزع عنها الرحل، فظلت صخرة كبيرة بين الصخور الساكنة!

قال أحدهم: أين الغنيمات القاتلة التي أجبرت الزول أن ينزل هذا المنزل، لا بد أن الذئب سيتعشى بها هذه الليلة، قال آخر: لا تخف إن الذئاب لا تسكن قريباً من «طخ النار» غداً بنور الصباح نفتش عليها..!

ويتجهون إلى «بئرين»، إلى حيث المقبرة، ويرسلون طليعة أمامهم تستكشف الآبار، لئلا يكون العدو قد حرسها، ولشدة دهشته، يجد الغنم هناك تدور على «الأحواض» حول بعضها كالكرة كأنما لم تأت لتستقي فحسب، وإنما جاءت كذلك لتودع صاحبها الوداع الأخير!!

ويهال التراب على الزول، والبنات الصغيرات في شبه غيبوبة والرواحل لم ترفع عنها أحمالها، وتذبح واحدة من الغنيمات «ونيسة» في عادات بعض البدو و «تسكيرة قبر» عند بعضهم، وصدقة عن روح الميت عند من أوتي حظاً من العلم من بنهم، وتركوا نعاله وعباءته على القبر، ورمى واحد بِشِنَّةٍ صغيرة، «صفن» كان الفقيد يعلقها دوماً في عنقه، فقيل له: هاتها لا ترميها، ستجد فيها كل أوراقه الغالية.. ستجد فيها «حجج» الأرض ووثائق القِطَع التي اشتراها...!!

ومضى الجماعة إلى مأمنهم، يسوقون الغنيمات أمامهم ويقودون رواحلهم عبر الصخور إلى معقل «عزيز» يتطلعون إلى بزوغ الفجر، ويغمرون البنيات بكل ما وهبهم الله من عطف وحنان،

وكلهم يجادل الآخر في كفالتهن، إلى أن اتفقوا على أقرب الناس إليهن..!

قلت لمحدثي: وماذا كان مصير بنات الزول، لا بد أن كل واحدة منهن الآن في كفالة زوج، وإني لأعرف ما لهذا البيت من صيت في المروءة والجمال، فالتفت صاحبي إلى جاره وتلفت الجميع إلى بعضهم وقلبوا أيديهم: والله ما ندري... فطاف بذهني في لمحة ذلك المصير، حين لا يحب أحد من رجال القبائل أن يتكلم عن شيء مكروه، أو حين لا يحب أن ينقل خبراً مشؤوماً الى محدثه، فيتملص من الإجابة بالجواب المعروف «لا أدري...»!

كانت هذه الجريمة حافزاً جديداً لشباب القبيلة يثير فيهم الهمم، ويجدد فيهم العزم، ويملأ قلوبهم نخوة وشجاعة، وكأنها على صغرها بالنسبة لخسائرهم في «الصبحة» أشد إيلاماً، وأقوى في إثارة الحمية والغيظ، فانتشروا على الطرق، كل الطرق، يزرعون ألغامهم عند منعطفاتها، ويجهزون بأيديهم ـ حين تحين الفرصة ـ على من يسلم من تدميرها، وتوسعوا بعيداً الى الشمال الى جوار بئر السبع، وإلى أبعد منها، يسطون على مخيمات (العائدين الجدد) ويثيرونها معارك محدودة «قد تجد يوماً من يتتبعها بالتفصيل» ولعلّ نتائجها ما تزال كافية لإقناع كل من في رأسه عقل ويريد أن يحارب العدو حقاً أن مثل هؤلاء الجنود، ومثل تلك الغارات، إذا ما عززت ونظمت هي المرحلة الضرورية لتدمير العدو وإقلاقه، وبالتالي رد مظالمه، وحصر جرائمه عن الأرض السليبة، والأرض التي لم تسلب بعد.

ولكننا ـ ونحن نتجاوز عن التفصيل في هذه المعارك المحدودة ـ

لا نجد بدّاً من ذكر معركة كبيرة، لعلها أكبر معركة خاضها أولئك الشباب ضد اليهود، بمصفحاتهم وطائراتهم، تلك هي معركة (عزيز) تجلّت فيها مقدرة البدو على خداع العدو وجره إلى التهلكة، وتحكم النظام والدقة في تصرفاتهم، مما أمكنهم أن يقضوا على غالبية الجنود الذين هاجموهم فجر يوم رائق من أوائل ربيع عام ١٩٥٤.

لقد ضاق اليهود ذرعاً بهجمات تلك المجموعة من الجنوب والغرب الذين شددوا ـ يعززهم رجال الكف الأسود من الشمال ـ هجومهم على رواد إسرائيل الأولين في منطقة بئر السبع، وتابع ساسة إسرائيل تقديم المذكرات والاحتجاجات، وتابعوا كذلك عدوانهم على القرى العربية في قطاع غزة، تنفيساً لغيظهم ودفع السلطات العربية لمعالجة أمرهم، وكانوا يقولون في إذاعاتهم: إن هذه الغارات يقوم بها متسللون عبر الحدود بإيعاز من الحكومات العربية، مع أنهم يعلمون أنها تأتي من داخل حدودهم من الجيوب التي لم يستطيعوا السيطرة عليها بعد، وكانوا يعرفون في نفس الوقت أبطالها، وقادة معاركها!

كان العدو لا يعدم من يبلغه أخبار المهاجمين، وأماكن وجودهم، وفي أول يوم انطلق فيه الشباب من معسكر (عزيز) استطاعت عيون الغزاة أن يعرفوا رجال هذا المعسكر، وأن يعرفوا من يمدهم من المعسكرات المجاورة، واستطاعوا كذلك أن يدسوا عليهم من ينقل أخبارهم أولاً بأول!

كانوا في حدود العشرين من الشباب القوي المكافح، ثلاثة منهم ـ كما قلنا في السابق ـ يحتفظون بزوجاتهم معهم لمهمات الطهي وإحضار الماء، وتنظيف السلاح، وكن أخوات عزيزات لغير

أزواجهن، كم من المغيرين أتى لهن بخواتم أو هدايا خاصة من غنائم الغزو، وكان البدو بما أوتوا من يقظة وقوة الملاحظة، قد افتقدوا مرات واحداً من رجالهم، وفي لباقة وسرِّيَّة استطاعوا أن يعرفوا أن العدو قد اشتراه من بينهم، أو أنه كان قد دسه من البداية عليهم، قالوا له أول مرة: أين كنت؟ قال: ذهبت إلى القصيمة. فأخذت إحدى البدويات زوجها على جنب لتقول له: رأيته يتجه الى الشرق يعني ليس إلى الغرب نحو القصيمة وراعيته إلى أن قطع الوادي وغاب عن ناظري... فكان هم المجموعة أن تخفي عليه أنها كشفته، فكانوا يأخذونه أحياناً للإغارة معهم إلى أن كان ذلك اليوم...!

* * *

وغاب من قدروا أنه الجاسوس غيبة طويلة من الظهر إلى المساء، قال عياد أحد القادة: والله إني لأشم رائحة الخيانة، والله إن العدو لهاجم الليلة، ووافقه (أبو سليم) على رأيه ـ وكان القائد الموجّه ـ وفي لحظات هدموا (خيشاتهم) وانتقلوا إلى الجانب الآخر من جبل عزيز، في الجهة الشمالية الغربية القريبة من سيناء، وهي أشد وعورة مما هم فيه، ويشق الجبل واد عميق ينتهي في وسط الجبل، ليكون في تكوينه شبيهاً بحذاء الفرس، كان المعسكر القديم على العدوة الجنوبية منها.

وانتظر الرجال الهجوم ثاني يوم، وكان أكثرهم قد تراهن على حدوثه أو عدمه، ولكن الجاسوس الغائب لم يحضر، ومضى ذلك النهار، وبدا لقادة المعسكر أن يقوموا بخدعة، فأرسلوا خمسة من رجالهم إلى مكان المعسكر القديم، وأخذوا يوقدون النيران هنا

وهناك، وتواصوا فيما بينهم على الخطة التي يجب ان تتبع فيما لو قام العدو بالهجوم. . . ومضى النصف الأول من الليل وفجأة ظهرت في الأفق أنوار سيارات لم يتحقق القوم من وجهتها، وبعد ساعة تقريباً ظهر واضحاً أن السيارات يتجهن إلى حيث مكانهم الأول، ووصلت السيارات بجهد بمحاذاة المعسكر القديم، وحتى هذه اللحظة لم يكن منهم من أطلق رصاصة واحدة، كان الفجر قد أخلى الطريق لنور الشمس، وبدت خيالات الجنود وسياراتهم تتكشف قليلاً قليلاً، وبدأ الجنود في تسلق السفح على هيئة كماشة ليحيطوا بالمعسكر القديم الذي أخلي من قبل، وتحركوا مئات الأمتار عن سياراتهم، فلما كادوا أن يقربوا من الحافة بدأ الرجال الخمسة في المعسكر القديم في إطلاق نار حامية من مدافع رشاشة!

وتراجع اليهود على أعقابهم يفتشون عما يمكن أن يحتموا به، فانهال الرصاص عليهم من الحافة الشمالية والغربية، وكانوا هدفاً سهلاً إلى قلب دفاع الفدائيين وقناصتهم، واستمات اليهود لكي يصلوا إلى هضبة صغيرة في آخر الوادي، واستمات العرب في إبادتهم دونها، وتعالى صراخ اليهود وحاولوا العودة إلى سياراتهم، وطالت المعركة، وبزغت الشمس تكشف المعتدين تماماً، يزحفون في بطن الوادي، وهم يجرون قتلاهم وجرحاهم، وانهال الرصاص بدون حساب عليهم، وطالت المعركة واشترك فيها رجال من جماعة الكف الأسود، جاءوا يلهثون على صوت الرصاص من بعيد، وفجأة ظهرت على رؤوس الجبال طائرتان تلقي القنابل والرصاص على غير هدى، فالتفت لها الرماة ووجهوا نحوها نيراهم، ويقول أبو سليم: إنه بعد لحظات كانت واحدة تهوي في آخر جبل عزيز، وتختفي إلى

الشمال ووراءها خط طويل من الدخان!

غير أن هجوم الطائرات كان قد شغل الرماة وقتاً قصيراً، ولكنه كان كافياً لإعطاء جنود الهاغناة الفرصة لكي يجروا قتلاهم، ويحملوا جرحاهم، ويتحركوا بسياراتهم المصفحة الى الشمال، تاركين وراءهم بقعاً كثيرة من الدماء، وكميات من الأسلحة والذخائر وصفائح البنزين، ولفائف القطن، وسيارتان وضع عليهما البنزين بعد ان جردتا من كل ما يمكن أن يكون ذا فائدة، وأشعلت فيهما النيران. . . ووجد وراءهم كذلك عشرون رأساً من الغنم لا بد أن اليهود قد نهبوها من أحد العربان الذين شاء لهم القدر أن يكونوا في طريقهم. .

لم يفقد المعسكر واحداً من رجاله، وأخذ قادة الفصائل يتفقدون رجالهم، لم يكن قد غاب منهم أحد، إلا ذلك الذي يعرفون أن العدو قد اشتراه من قبل، وجمعت الذخائر والرشاشات مع علب المأكولات ولفائف القطن، قال أحدهم: ارموا إلى (صبحة) بأفضل ما عندكم، لقد كانت حارس ظهركم اليوم. .!

قال زوجها عياد: هل هذا صحيح. . وكيف؟. . . قال آخر: لقد رأيتها والله تزحف عند الصخرة تلك! وهي تطلق النار والزغاريد معاً!. . .

قال عياد: لقد سمعت الزغاريد، ولكني لم أسمع إطلاق النار، وقفز إلى زوجته التي يفصلها عنهم (المعند) في بيت الخيش الصغير بين مسرور ومستنكر، ونظر إلى البندقية قريباً منها، فرأى بصمات (العجين) ما تزال ظاهرة عليها، فأطلقتها في وجهه ضحكة خفيفة، وهي تقول: كلنا يا عياد أولاد تسعة أشهر، كنت أعجن

فطوركم ، وأنا أعرف أنكم تقاتلون اليهود ، ولكني فوجئت بالطائرة تطلق علينا النار ، فقلت أشاغلها عنكم . . !

وأحب أكثر من واحد أن ينسبوا سقوط الطائرة إلى (صبحة) ، ولكنهم لم يغبنوا زوجها حقه في البطولة والجرأة ، وكذلك (الوريدي) ، وظلوا يذكرون أن رأي «أبي سليم» كان بركة عليهم ، وكانوا يستشهدون ببعضهم بعضاً ، حين يطلقون على العدو النار : «شوف يا فلان أنا أصوب على اليهودي ذاك . . » فإذا أصابه قال : اشهد!

ووصلت نجدة الكف الأسود مع حماة المعسكر القديم ، وتغدى الجميع على رأسين من الغنم من مكاسب المعركة ، ودعا داعي الصلاة فتوجهوا إلى الله شاكرين على النصر الذي منحهم إياه ، وانفضوا وهم أشد إيماناً وأقوى عزيمة مما كانوا في يوم من الأيام . لقد كان حديث الجميع عن فائدة الخدعة ، ولولا أن الله قد ساق لهم ذلك الخائن ، ما كان يمكن أن يقع اليهود في مثل ذلك الفخ ، وتشاوروا طويلاً هم وأعضاء الكف الأسود عن إمكانية إنجاح هذه الطريقة مع اليهود ، حتى ولو اضطر الأمر ألى أن يرسل واحد من المخلصين من رجالهم ليتظاهر بأنه قد هجر قومه ثم يشرع في إعطائهم الأخبار اللازمة!

قلت لمحدثي : وجاسوس معسكر (عزيز) ما حدث له؟ قال : لا أدري ، لم يره أحد بعد تلك الحادثة ، وأكبر الظن أن اليهود قد كفوا زملاءه مؤونة عقابه ، لأنهم إما أن يكونوا قد شكوا في صدق أقواله ، أو أنهم اعتبروا سعيه شؤماً عليهم .

وقلت : وعياد لقد حدثتني كثيراً عن شجاعته ، هل وصل إلى

هذه الديار معكم ، قال : هو شاب يتيم كان مضرب المثل في قتال الغزاة على وجه الخصوص ، لا يهاب جموعهم ، ولا السطو على أكبر مستعمراتهم ، ولكنه لم يصل معنا ، وأكبر الظن أن اليهود قد أحاطوا به أخيراً ، وتمكنوا منه أواخر عام ١٩٥٦ ، ولم نسمع عنه بعد ذلك ذكراً أو نعثر له على أثر!

قلت : و (صبحة) زوجته ، لا بد أنكم كنتم بها بَرَرة ، ولها أوفياء ، فمنحتموها من عطفكم ورعايتكم ما يعوض فجيعتها في فقد زوجها . ؟

قال: لا ندري عنها شيئاً ، وكل الذي بلغنا أنها اختفت مدة شهرين في الديرة!! إلى أن تمكنت من الفرار ، فقيل : إنها وصلت إلى الحدود العربية الأردنية عارية الرأس منفوشة الشعر ، تفتش عن أهلها ، وهي في مرحلة بين العقل والجنون ، وبين الحياة والموت ، تكره أن تحدّث الناس ، أو أن يتوجهوا إليها بالحديث ، وتكره أن يعرف أحد مقرها . . . !

قلت : لنعد إلى نهاية المعركة . .

قال : لم تكن للمعركة نهاية فاصلة ، لقد ازداد العرب نشاطاً ، وتسامع الناس في أرجاء المنطقة بهذا النصر ، فهب كثير منهم للحاق بالمحاربين ، وازداد الضغط على اليهود ، وكثرت خسائرهم في الطرق وفي المستعمرات ، وتعاون الجناحان : جناح الكف الأسود وجناح معسكر «عزيز» في حركات منظمة رائعة ، لا تترك سبباً للخلاف والصدام ، فكانوا يخططون معاً للغارات ويرسمون طرق التعاون ، ويخزنون في مضائق معينة مؤونة وماء ليكون قريباً إذا ما قدر لرجالهم أن ينقطعوا من الزاد والماء .

وشكا اليهود من هذه الحركة الجديدة، وحاولوا أن يثيروا الإضطراب ويقوموا بهجمات غادرة على الحدود العربية تغطية لفشلهم في مواجهة أولئك الرجال الذين لا يدري عنهم العالم العربي شيئاً، وازدادت السلطات العربية يقظة لمنع التسلل من المنطقة المحتلة، وازدادت الرغبة في ضمان الهدوء والسلام على خطوط الهدنة، ولكن هل يكفي ذلك اليهود، وهل سكتوا عن جيوب المقاومة في منطقة العوجا..!؟ أو المنطقة الحرام في تقسيمات رودس!؟

لقد تحدث اليهود في إذاعتهم عن معركة (عزيز)، ووصفوها بأنها عملية منظمة، قام بها جنود منظمون من سيناء، وعقدت جلسة مستعجلة للجنة الهدنة المشتركة لبحث ادعاءات إسرائيل، ولكن العدو كان يفعل ذلك في قطاع الدعاية، للاستهلاك الخارجي من ناحية، وليضطر السلطات المصرية أن تضغط على المجاهدين وتمنع كل اتصال بهم أو إيصال المؤن إليهم ـ على الأقل ـ أما في ميدان الحرب ومن أجل مواجهة فدائيي (عزيز) فقد عمد إلى تغيير خططه جذرياً، وقرر عدم استعمال الدبابات والمصفحات في مطاردتهم.

* * *

لعل بعض من يتذكر الأخبار قبل سنوات، والتي ترامت من المنطقة المحتلة، عن تجنيد إسرائيل للبدو في منطقة النقب، يذكرون الحملة الجديدة للتقرب من البدو، أو حملة الإرغام التي ساقوهم بها لمحاربة زملائهم في المنطقة المحرمة في جبل (عزيز) وخراشة والنفخ والأودية المحيطة، وكذلك لمحاربة الكف الأسود في منطقة العجرة، وتم بعد ذلك تجنيد مجموعة من «المسالمين» البدو في قوة جديدة سموها

(قوة الهجانة) شبيهة بتلك التي ألّفتها بريطانيا في بئر السبع أيام الانتداب ، وبعد تدريب بسيط ، أطلقوها أسراباً بقيادة بعض اليهود العسكريين ، أو بإشراف مجندين من الدروز المقيمين بالمنطقة المحتلة . !

وكان البدو الذين جندوا في هذه القوة بين نارين : نار انتقام إسرائيل ، ونار الالتحام مع بني جلدتهم في حرب مدمرة ، ولكن ذلك لم يمنع مسيرهم كارهين إلى جيوب المقاومة جنوب شرق العوجا وشمالها!

أما القوة التي خصصت (للعجرة) فانطلقت بمئة مسلح ، من نقطة (الرّابية) جنوب شرقي رفح ، معها قافلة كبيرة من الإبل التي تحمل الذخيرة والسلاح والماء والطعام ، وكانت تسير جنوباً لتقطع الكثبان الرملية الوعرة معقل (الخارجين على القانون) ، في تلك المنطقة ، وكانت هذه الحملة تسير أربعة أو خمسة كيلومترات ، ثم تعسكر وتكتشف طريقها في تلك المجاهل الصحراوية الوعرة ، فأعطوا الفرصة لسكان المنطقة للزوغان من طريقهم ، فلم يصطدموا بأحد مطلقاً حتى وصلوا إلى طريق الإسفلت قريباً من بئر الملاقي جنوب رملة العَجْرة ، عند التقاء وادي الأبيض برأس وادي (الأزارق) ، ولكن البدو استطاعوا أن يظفروا بداورية منفردة ، مكونة من خمسة أشخاص أبادوها ، ولم يعد اليهود بعدها إلى مهاجمة العجرة حتى عام ١٩٥٦ أيام هجومهم العام على سيناء وقطاع غزة .

أما القوة الثانية فقد خصصت لمطاردة شباب معسكر عزيز بالذات ، وكان يمكن لهذه القوة أن تكون أكثر نجاحاً ، ذلك أن المناطق الجبلية يمكن حصر (الوعورة) فيها ، بعكس المنطقة (الرخوة)

في العجرة، ولكن (أدلاّء) هذه القوة العرب، كانوا من الذكاء والمقدرة بحيث استطاعوا الاتصال بقومهم وتحذيرهم أينما كانوا، بحيث إذا قصدت القوة مكاناً تحرك الفدائيون إلى غيره، وهكذا إلى أن كلّوا وملّوا، وبدا أن اليهود بهذه الطريقة كانوا أشد فشلاً في مطاردة البدو من المصفحات والآليات، فعادوا مرة أخرى إلى استعمال الطائرات وحصرها في الاستكشاف وضرب السكان، حتى ولو كان رجلاً بمفرده، وفي أواخر أيام قوة الهجانة تفتقت عبقرية الصهيونية عن طريقة حاولوا أن يفسدوا بها الحلف الذي كان قد تم بين الترابين والعزازمة أو جماعة «عزيز» والكفّ الأسود لمقاومتهم والدفاع عن أنفسهم، فقد لبست مجموعة من الإسرائيليين وأعوانهم ملابس البدو وأغاروا على غنم وإبل السّراحين من عشيرة ابن سعد، من العزازمة في خراشة، واستاقوها إلى الشمال الغربي، وتحدثوا على مسامع الرعاة بما يوحي بأن الغزاة من الترابين ـ أعضاء الكف الأسود ـ ثم اطلقوهم ليبلغوا من وراءهم، وكادت أن تحدث الفتنة وأن تنتهي تلك المقاومة أسوأ نهاية، لولا حنكة قائد جبل عزيز، إذ أنه أرسل في الحال إلى قادة الكف الأسود في تلك المنطقة، فلما أنكروا الواقعة إنكار تامّاً، أطلق رجاله جميعهم عبر الأودية وحول المستعمرات يفتشون عن الإبل والأغنام المنهوبة!

وكان الأمر في غاية الخطورة في نظر الطرفين، ولم يطل بهم التفتيش، حتى عثروا على المسروقات في حراسة يهوديين وراع من البدو ترعى في السهل شرقي خرائب السبيطة، وجنوبي مستعمرة حديثة كانت قد أقيمت هناك، فرجعوا يتشاورون في الأمر، ثم قرروا استرجاعها بالقوة، لكي يكون الإثبات قاطعاً أمام المنهوبين

وحتى يعود سهم اليهود إلى نحورهم وقبر الفتنة في مهدها، فاتفقوا على خطة انتحارية، استرجعوا بها الغنم والجمال في قصة تستحق الرواية والتاريخ . . . !

كان تقرير الرجال الذين عثروا على الأغنام والجمال المنهوبة، عن مرعاها ومراحها ومغداها واضحاً جدّاً، وبعد دراسة المكان دراسة وافية وهم كانوا أعلم بأحجاره (وريضانه) من اليهود، وبعد مراقبة الحراس والرعاة، وجدوا أن واحداً منهم يتمركز في الصباح في برج أثري في خرائب السبيطة، في أعلى مكان من التلة القديمة، حيث يراقب الغنم وهي سارحة، ويده على رشاش كبير، حتى إذا أقبل الليل وأخذت الأنعام كفايتها من المرعى الخصيب، انسل مع رفاقه إلى مستعمرتهم يبيتون فيها، هم والأغنام تحت حراستها القوية، وواضح أن اليهود يريدون تربية الأنعام، أو الاستفادة من أثمانها بعد تسمينها فترة من الوقت.

فأقبل الرجال من معسكر عزيز تحت جنح الظلام، فكمن اثنان منهم في البرج، واختبأ الباقون في أركان الخرائب القديمة، وكمن اثنان آخران قرب مستودع قديم للماء، وحالما دخل الحارس اليهودي البرج، انقض عليه الكمين وأنهى مقاومته في صمت، وأخذوا غطاء رأسه وأخذ أحدهما في تمثيل دوره، فلما ارتفعت الشمس عند ضحوة النهار، ذهب الراعي البدوي من قبل اليهود، إلى مستودع الماء لبعض حاجة، وهو مشغول بنشل الدلو أحاط الكمين به وسحبوه إلى مخبئهم، وعند الغداء أخذ الحارس اليهودي الثالث ينادي صاحبه فلم يرد عليه فبدأ يصعد السفح إلى البرج ومن بين الآثار انقض عليه اثنان، فقاوم فأطلق أحدهما عليه النار،

وكانت غلطة ، ظل الشباب يلومون صاحبها عليها فترة طويلة ، فلما قضي الأمر لم يجدوا بدّاً من أن يسوقواالأغنام مخاطرين في (عز) النهار ، واشتدوا في دفعها إلى الأمام . ومات بعضها ، وهم في ربكة من أمرهم ، ويعتقدون أن صوت الطلقة لا بد أن يكون قد أنذر المستعمرة ، وبهذا الاعتقاد الذي سيطر عليهم مضوا مسرعين يقظين إلى الجبال الوعرة في الجنوب!

ومضت الشمس إلى المغيب ، والرجال مع الارتباك لم يصنعوا لهم غداءً ، فلما أقبل الليل ، تنفسوا الصعداء مع الإحساس بالنجاة فاستراحوا قليلاً في بقعة مستورة من الأرض ، وفي هدوء أشعلوا النار وهم شديدو الحرص أن لا يكشفهم نورُها ، وأسلحتهم مصوبة نحو الطريق التي يشكون أن العدو سيسلكها ، وكانت الهجانة حتى ذلك الوقت ما زالت تحت السلاح ، ولكنهم أكلوا وشربوا واستراحت أنعامهم دون أن يزعجهم غريب ، وهكذا تمكن القوم من وأد الفتنة في مهدها ، وأحس الناس في خراشة وما حولها بالفخر والاعتزاز أن يستنقذوا أغنامهم من فم الثعبان الصهيوني على هذه الصورة الجريئة المشرفة!

وفي الصباح شوهدت الطائرات وهي تقلب أجنحتها على السفوح ، وشباب معسكر «عزيز» يبتسمون في سخرية منها وأغنامهم بعيدة عن متناول رصاصها ، ويستعرضون حوادث تلك المعركة الصامتة ويمدحون في إعجاب ذلك اليهودي الذي قاوم ، ويقولون : إنه لا بد أن يكون من أهل اليمن أو العراق!! من الذين عاشروا العرب ، وتعلموا قدرتهم على القتال!!

لقد تأكد جنود إسرائيل في النهاية عقم محاولتهم الجديدة

للسيطرة على البدو في الجنوب، بواسطة قوة الهجانة، واختفت مع الزمن تلك القوة، دون أن يذكر اليهود لها عندهم حسنة واحدة، ودون أن يذكر لها العزازمة جريمة منكرة معينة، واستمرت المناوشات على ما كانت عليه. وبدأ القتال يشتد وعدوان اليهود على خطوط الهدنة يتضاعف قوة وتدميراً، وكان كل شيء يكشف أن اليهود يحضرون لعدوان مدبر وشامل، وذلك الذي كشفت عنه الحوادث في عام ١٩٥٦.

قبل أن نبتعد قليلاً لا بد لنا أن نعرِّجَ قليلاً على موقف السلطات الرسمية من أولئك البدو، إبان مطاردة الإخوان المسلمين أواخر عام ١٩٥٤، فلقد قلنا فيما سبق: إن الجماعة قد احتضنت لاجئي القصيمة، وأقامت لهم مدرسة ومستوصفاً طبياً، وكان مدرّسوها وخطباؤها يختلطون برجال القبيلة، فلما أقيم معسكر (عزيز) وظهر بعض التنظيم في تصرفات أفراده، قال الجميع: إن ذلك من ثمرات توجيهات الإخوان وتدريباتهم، ولا شك أن الإخوان المسلمين لم يكونوا ينكرون الاتصال بأولئك الشباب، أو مساعدتهم، بل كانوا يدعون جهاراً إلى ذلك، ويطالبون بتدريب البدو عموماً، وتوجيههم نحو أرضهم في المنطقة المحتلة، ولكن هذه الدعوة كان وراءها القلق وتوتر الحدود، ومن بعدها حملات اليهود الانتقامية فكانت توصف عند السلطات العربية بالتطرف واللامسؤولية!

ولا شك أن السلطات العربية الرسمية كانت حريصة على القيام بتعهداتها على طول خطوط الهدنة، حريصة على عدم إثارة التوتر على الحدود بما يوازي حرص اليهود عليه، وكانت لا تتساهل

مع أولئك الذين تظنهم مصدر القلاقل حين ترميهم (الرِجْل) تحت يدها وضمن نفوذها، غير أن ما يقوم به رجال العشائر في منطقة العوجا من هجمات دفاعية عن أنفسهم، كان خارج نفوذ هذه السلطات، إذ كانوا من حصة المناطق الحرام التي خططت في رودس، ولكن أعمالهم قد أثارت اهتمام سلطات سيناء، ليس لما تثيره من توتر مستمر فحسب، ولكن لما له من عَلاقة قريبة أو بعيدة بنشاط الإخوان المسلمين، الذين بدأت في ذلك الحين مطاردتهم ومحاولات القضاء على حركتهم، وكان هروب بعض قادة الإخوان المسلمين من سيناء ومطاردة السلطات لهم، وهم في نظر العزازمة مثلاً أعلى للأخوّة أوقع أولئك الرجال المساكين في حيرة ما بعدها حيرة وأصيبوا بضربة قاصمة في روحهم المعنوية، ثم كان تأخرهم في التقرب إلى السلطات ونبذ الاتصال بالإخوان قد أوغر الصدور عليهم، فصدرت التعليمات بمراقبتهم وقطع كل اتصال معهم، من القصيمة أو غيرها من مراكز الحدود!

ومع ذلك فقد كان الاتصال بالقصيمة سهلاً في أقل من ثلاث ساعات يصلها راكب الجمل يخبىء جمله في تل مجاور، ويطلب إلى أحد أقاربه من مجاوريها أن يشتري له الطحين أو القهوة، وكان كل واحد من تلك المنطقة يقدم ما استطاع من المساعدة المادية لفدائيي «عزيز»، وكان أحدهم إذا ما وصل أحد البيوت دخله ضيفاً عزيزاً مكرماً على شرط أن يختفي عن عيون الشرطة، أو رجال المباحث، وفجأة تكشر الأنياب، وتعبس الوجوه، ويحقق مع نزلاء القصيمة، وتسري رجفة في أوصال الأبطال الذين كادوا أن يحيطوا ببن غوريون نفسه في مستعمرة ستودوبيكر، أو أم (حوية) كما يعرفونها!

نعم لقد أصابتهم رجفة هم وجميع سكان خراشة ، وكل تلك البيوت المنفردة التي تزوغ عن طائرات العدو الكشافة في المغاور والكهوف ، في رؤوس الجبال وبطون الأودية بسبب الملاحقة المفاجئة لهم من السلطات في سيناء ، وأنت إذا ما زرت واحداً من هذه البيوت وجدت أهله لا حديث لهم إلا انقطاع البن ، وعودتهم إلى الطحن على (الرحى) اليدوية لانقطاع الدقيق ، وأصبح أولئك البؤساء سوقاً لا نظير لها للمغامرين والمهربين الذين يأخذون ثمن الحطة والعقال رأساً من الماعز أو الضأن ، خَلِّ عنك البن والسكر وبقية الحاجيات الضرورية للبدو ، وهم يتحدثون كذلك عن آخر الأنباء بين العرب واليهود ، وأنباؤهم متأخرة جدّاً في العادة ، ولكن أهم ما يؤلمهم ويثير في نفوسهم القلق والتشاؤم تلك الأنباء التي تترامى عن سجن فلان من رجالهم أو التحقيق مع علان ، وكانوا إذا ما سجن الواحد منهم في سيناء يقولون : (غابت شمسه) ، وإذا جاءهم قالوا : خرج من براثن الموت!!

أما عياد ومصلـح وغيرهم من قادة فدائيي جبل (عزيز) ، فقد اختاروا جبل (قديس) جنوب شرقي القصيمة ملجأ لهم ، وهو جبل له ميزة لا مثيل لها في تلك الجهات ، لأنه كان يمتد من فلسطين إلى سيناء ، والحد يفصله من النصف تقريباً ، ومضوا في فتور إلى مواصلة عملهم ، وقد أخذ بعضهم يتفلت إلى بلد عربي يلجأ إليه ، ليعيش في أمن وسلامة ، ولكنه غالباً ما ينتهي إلى أعماق السجون .

قال محدثي : لقد نظم اليهود أكثر من غارة جوية وبالدبابات الجبلية على جبل قديس ، «وحين كان اليهود يهاجموننا من الشرق ، نتسلل في هدوء إلى ما وراء الحد في سيناء» ، وكذلك لقد قام رجال

الأمن في سيناء بهجوم تفتيشي على جبل قديس، «فكنا نتسلل إلى الشرق»، وهكذا عشنا تلك الأيام السوداء في انتظار المعركة الفاصلة التي كنا ما زلنا نحلم بأنها واقعة لا محالة بين الدول العربية والغزاة، من أجل أن نزحف مع جنودها ونساهم معهم في استنقاذ أرضنا من براثن الأعداء...!!

على كثرة الصدام وشدته بين القبائل واليهود. فإنه لم يسجّل حادث واحد اعتدوا فيه على مراقبي الهدنة، لقد كان مركز هؤلاء المراقبين في عوجا حفير، وكانوا يتجولون بسياراتهم البيضاء في المنطقة المحرمة كما يشاؤون دون أن يحملوا سلاحاً يدافعون به عن أنفسهم، بل إن عدداً منهم كان يزور مضارب البدو ويشاركهم شرب القهوة، وكانوا لا يسمعون حتى التعليقات التي يمكن أن تعرّض بهم على الرغم من أن البدو ـ فيما بينهم ـ كانوا يشكون في أنهم من اليهود، وأنهم إنما جاءوا للتجسس، وكانوا يقولون: (انظروا إلى عيونهم يا ناس)! أليسوا من هذه الملة الظالمة؟ يشيرون إلى عيونهم الزرق وإلى لون بشرتهم، ولكن ذلك كما قلنا لم يمنعهم من تقديم الاحترام لهم، لأنهم (عزّل) من السلاح أولاً، ولأنهم ربما كانوا من الذين يحققون العدالة بين الأمم كما شاع عن مهمتهم في تلك الأيام!

ومن المؤسف أن أولئك المراقبين لم يكونوا يصطحبون تراجمة معهم، ولم يكونوا يحسنون أكثر من (السلام عليكم)، و(كويس كتير)، ولو كانوا يحسنون العربية، أو كان لديهم تراجمة بالعوجا حفير، إذن لدوّنوا ـ إذا ما أرادو ـ قصصاً غريبة يحفظها البدو عن جرائم اليهود، ولدوّنوا معها حجج البدو في إظهار حقهم، وفي تبريرهم للدفاع عن أنفسهم من المظالم التي وقعت عليهم.

وأشد حادثة يرويها لك القوم عن مقابلة غير ودية مع واحد من مراقبي الهدنة، هي تلك التي حدثت قريباً من (قديس)! فعلى غير انتظار، فوجىء فدائيو «عزيز» بسيارة (تقرقع) من قريب على طريق وعر جداً، قريباً من خراشة، فأحاطوا بها وقد ظنوها بادىء ذي بدء لليهود، فرأوا فيها رجلاً واحداً وقف رافعاً يديه، وأشار إلى العلم وإلى أل (يو. أن .U.N) المسجلة على السيارة ولم يعثروا معه حين فتش إلا على منظار مكبر وبعض المعلبات، والحق أن بعض الرجال المتهورين كانوا يرغبون في (نهبه)، ولكن القائد منعهم منعاً باتاً، وأعاد المنظار إليه، ثم أمره بالعودة من حيث أتى، تعبيراً عن استيائهم من مواقف المراقبين.

ولعل هذه الحادثة يمكن ان تكون ذات دلالة خاصة، فإن البدو لم يفعلوا مثلها من قبل، ولكنهم كانوا يتجادلون فيما بينهم، ماذا فعل لنا هؤلاء، لقد رحلنا من أرضنا إلى المنطقة المحرمة، وطاردنا اليهود، واعتدوا علينا وما نظنهم ـ أي المراقبين ـ قد سجلوا حتى هذه الاعتداءات، هل صنعوا شيئاً كثيراً، أبعد من مراقبتنا، والتفرج علينا، ومتابعة انسحابنا من بقعة إلى بقعة حتى لحقوا بنا إلى (قديس)!

أما الحادثة الطيبة التي يتناقلها البدو عن مراقبي الهدنة، فهي لقاء بعض أقربائهم بالقصيمة مع الكوماندور هتشيسون[1]، حين كان يحقق في هلاك ركاب الباص اليهودي في وادي (الفقرة)، غربي نقطة عين حصب، فلقد امتد معه التحقيق عن (الجناة) كما يروي في كتابه «الهدنة الدامية» عن حادثة ممر (العقرب) كما يسميها، إلى

(١) أحد مراقبي الهدنة

القصيمة، ليتتبع نشاط عصابة الكف الأسود، ويقول هتشيسون:
لقد نهض ستة عشر شيخاً من مشايخ قبيلتي الترابين والعزازمة لتحيتنا، وقد أمعنت النظر في كل شيخ من المجتمعين بالحجرة، فتركوا في نفسي أطيب الأثر، لما لاحظت في مظهرهم من نظافة، وفي مخبرهم من ذكاء، وفي استطاعتي أن أؤكد أنهم لو لبسوا لباس الغربيين ـ وما أحسبهم يرتاحون إليه في مثل هذا الجو ـ لخيل لأي إنسان أنه أمام اجتماع مدني في أحد أندية الولايات المتحدة...
وتكلم هتشيسون ورد عليه المشايخ، وكان حديثاً رواه في الصفحات ٨١ و٨٢ و٨٣ من كتابة المذكور، من واجب كل منصف ان يطلع عليه على الرغم مما فيه من هنات، وعدم معرفة بطبيعة المشايخ الذين لقيهم، جهلاً يشاركه فيه العرب أنفسهم، وعلى الرغم من أنه في مهمة وراء (الجناة)، وليس وراء مهمة البحث عن أصل البلاء، أولئك الذين يدوسون كل القيم الإنسانية في إخراجهم للقبائل من أرضهم، وهم يصدرون عن رأي دولة لها دستورها، وفلسفتها وتعاليمها، وهي بعد، أحد أعضاء الأمم المتحدة وليس (ابن سبيله)، و(ابن عكري) و(ابن عويمر) من هؤلاء الأفراد البدو الذين يقاومون الاحتلال بأسلحتهم البسيطة وأساليبهم الساذجة.

ويقول هتشيسون في صفحة ١٤٤ في معرض حديثه عن أسباب التوتر بين مصر وإسرائيل: (إن آلاف البدو الذين أخرجوا بوسائل غير مشروعة من إسرائيل إلى سيناء في جنوب القطاع، بدأوا يشنون غارات انتقامية، وكثيراً ما تحمل سكان غزة تبعتها... دون أن تكون لهم فيها يد، وواقع الأمر أن جميع الغارات التي شنت على اليهود في المنطقة المحتلة، كانت من منطقة خراشة أو العوجا حفير،

في حدود فلسطين، حيث تجمع الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، واليهود يعرفون ذلك، وأن اعتداءاتهم على غزة كانت غيضاً من فيض أمام الجهود التي بذلت للقضاء على جيوب المقاومة في جنوب قضاء بئر السبع، منذ أن انتزع الجيش اليهودي الناس من أرضهم نزعاً ولكنّ أحداً لم يلتفت جدياً لتلك الاعتداءات، أو يذكرها في معرض الدفاع، أو النقد، أو الاحتجاج الشديد، أو الخفيف، لا من المراقبين ولا من الحكومات العربية على حد سواء..

في أواسط عام ١٩٥٥ بدأ التوتر يزداد على طول خطوط الهدنة على الجانب الغربي، وأخذت القوات الإسرائيلية ترسل قنابلها عبر الخطوط، بعد أن شغلت طويلاً بالمناوشات البدوية في الداخل، ففي ٢٨ فبراير من ذلك العام أطلق اليهود قنابلهم على (سوق الدواب) في وسط غزة، حيث قتلوا وجرحوا سبعين من الضحايا الأبرياء، وفي ٣١ أغسطس من العام نفسه هاجم اليهود بناية الحكومة في خان يونس. هذا عدا عن الاعتداءات اليومية التي حدثت بين هذين الاعتداءين، وفي ٢٧ اكتوبر، تسللت السيارات اليهودية جنوباً عن طريق «المايَنْ» عبر الأودية والجبال، حتى وصلت إلى الكنتلة ليلاً، ففتكت بأفراد مركز شرطة الحدود هناك!

لقد تفرغت القوات الإسرائيلية ـ إلى حدٍّ ـ من مواجهة البدو، وأصبحت مصوبة الأنظار نحو القوى العسكرية العربية على الحدود في تلك الأثناء، ولكن البدو استطاعوا أن يشعروا بوجودهم حين سمعوا من الإذاعات، عن صدى حركات الفدائيين الذين قد يكونون هم أو غيرهم، وخف الضغط نوعا ما من حدود سيناء عليهم، فانطلقوا يساهمون في مجهود دحر العدو الذي ظنوه قاب

قوسين أو أدنى، وقرّبت الدعاية لهم البعيد، وهونت الصعاب، فأصبحوا وهم يتمازحون فيما بينهم عن الحدود بين مزارعهم هل تغيّرت وكيف يعرفونها؟ وعن ما يمكن أن يحدث من مشاكسات عند فصلها... بعد هذا الغياب الطويل!

لقد اكتفى العدو في هذا العام تقريباً بمطاردة البدو بالطائرات، وكثيراً ما كان الناس في خراشة وكذلك في العجرة يضعون (خيالاً) يشبه الإنسان وبيتاً من الشّعر لتضليل الطائرات، لضربه بالقنابل أو بالرصاص، وهم يتفرجون من بيعد على الطائرات تعلو وتهبط وتنقض، والبيت في مكانه و(خيال الإنسان) لم يتزحزح، وقال محدثي: إن هذه الطريقة معروفة بين البدو، وفي إحدى المرات استطعنا أن نصيب طائرة عند انقضاضها على الهدف (المزيّف) فولت مدبرة والدخان ينطلق كثيفاً من مؤخرتها.

لقد كانت المنطقة المنزوعة السلاح في العوجا، تكفي لأكثر من قبيلة لإيوائها والعيش فيها، وهي تقع على طول الحدود بين فلسطين وسيناء في منطقة غير متناسقة الأضلاع أطولها أربعين كيلو متراً تقريباً، وقد وجه اليهود ضغطهم للاستيلاء عليها من البداية، فأسسوا ـ كما قلنا ـ مستعمرة في أرض تقع شرقي مركز العوجا حفير، ليست بالطبع في أملاكهم، مدّعين أن غرضهم للبناء والتعمير فقط ولا يحملون سلاحاً إلا لحارسين فحسب، ومع الزمن تفجرت هذه المستعمرة (السلمية) أسلحة، وبدأت تنقض على مخيمات البدو الذين لجأو إلى المنطقة المنزوعة السلاح، واحداً بعد الآخر، دون أن يحرك المراقبون ساكناً أو يرفعوا عقيرتهم باحتاج واحد، فلما جاء عام ١٩٥٦ كانت هذه المنطقة الوعرة تحت أيديهم وقد تمكنوا منها،

ووضعوا أيديهم على بئر (الملاقي)، وهو مصدر ماء قبيلة الترابين، عند ملتقى وادي الأبيض، بوادي الأزرق، وكان هذا العمل من أشد الضربات التي أصيب بها البدو. فقد كان مراقبو الهدنة قد منعوا البدو من أخذ كفايتهم من الماء من آبار العوجا حفير العذبة، حماية لأنفسهم، وربما إكراماً لليهود، فكان الحصول على الماء في تلك المناطق من أشقِّ المشاكل التي واجهها الناس في تلك المنطقة.

لم يبق أمام اليهود في النهاية بالمنطقة المنزوعة السلاح ـ عدا المناطق الوعرة جداً ـ غير بناية مركز البوليس في عهد الانتداب حيث يقيم مراقبو الهدنة في ذلك الحين، وفي ليل ٢ نوفمبر من عام ١٩٥٥ حاصر اليهود ذلك المبنى وأكرهوا مراقبي الأمم المتحدة العسكريين على إغلاق حجرتهم عليهم، وقاموا بعدوان مركز تدعمه قوة كبيرة من الدبابات على المركز المصري الأمامي جنوب غرب العوجا حفير حيث أسروا وقتلوا، وأصيبوا ببعض الخسائر، ولكنهم عادوا إلى مركز العوجا حفير ليقيموا فيه إقامة دائمة وليطردوا مراقبي الأمم المتحدة حتى هذه اللحظة، وليخلوا لهم الجو في هذه البقعة ذات الموقع البالغ الخطورة على سيناء ومصر، ومنطقة بئر السبع وفلسطين في آن واحد. كل ذلك يجري والبدو لا يملكون المشاركة في الدفاع، ولا يساندون أو يخطط لهم في الهجوم، وإنما يندفعون من بعيد مع اتجاه الرياح، وعلى لمعان بروق الآمال، التي يخالون من ورائها العودة، ودحر هؤلاء الظالمين الذين شردهوم ومزقوهم، هكذا عراة جياعاً، في رؤوس الجبال ينامون كالوحوش في ضوء النهار، ويدبون معها في ظلام الليالي السود...!

لقد حاولنا أن نلقي نور الحقيقة على جرائم اليهود ضد البدو،

وجهود البدو لدفعها، حاولنا في حدود التلخيص الشديد، وفاءً لأولئك البائسين من أهلنا، دون أن نكشف الكثير مما قد يتصل بمصلحة الأمة الدائمة في تطلعها الى رد الظلم، ودحر الظالم وتطهير هذا الجزء الأسير من وطننا المقدس..!

ولكننا لم نلتفت إطلاقاً إلى أعداء آخرين بين هؤلاء الذين يتحدثون عنهم: الفقر، والجهل، والمرض - في سنوات تتمدد حتى ليخالها الناس في تلك المناطق دهراً طويلاً، من عام ١٩٤٨ حتى هذه السنة ١٩٥٦.

لقد كان رجال العشائر يحتفظون في أراضيهم بمخازن الحبوب، وغالباً ما تكون تلك المخازن سرية، وظلوا ينبشون ما سلم من عبث اليهود وأيدي أعوانهم من تلك المخازن، وينقلون محتوياتها حملاً بعد آخر إلى أن صدئت، وأفسدها السوس، ثم توجهوا الى البلاد العربية، الى كيس من الدقيق، أو من الذرة الصفراء، أو القمح من الأردن، هذا ما عدا ما يمكن أن يسلم من زراعتهم لأحواض من الأرض، لا يستطيع اليهود الوصول إليها، وإفسادها. وأنت إذا شاركت في تلك المرحلة، عائلة متوسطة الحال - نسبياً - من عائلات خراشة، وجبة طعام في الليل أو النهار، وجدت حساء غليظاً عجيباً من الماء والذرة الصفراء المصرية أو السودانية التي تطحن على الرحى اليدوية، وبين الحين والحين تصطدم أسنانك بأحجار الصوان الصغيرة المطحونة مع الذرة، ولكنك - إذا ما كان في أمعائك مثل ما في بطون هؤلاء البائسين - فإنك ستلوك الطعام في سرعة. دون أن تلقي بالاً إلى طعم أو رائحة أو نوعية الطعام، ولا إلى الحصى الذي يختلط في ذلك الطحين، الذي يغطي بخاره الأيدي

التي تهوي إليه، والذي يدعوه البدو (جريشة)!

لقد كانت (الجريشة) بالنسبة لسكان خراشة، و (قديس) وتلك المناطق، كالأرز بالنسبة لأهل الصين و (العيش الحاف) بالنسبة لمعظم شعوبنا، أما هذا الخبز (الحاف) وعلى وجه التحديد (قرص الملة)، فهو عندهم في مركز لا يتطلع إليه إلا الضيوف الأعزاء، وإلا القلائل الذين يوفقون في الكسب عند الهجوم على الأعداء، لقد هلكت الأغنام والجمال مع سنوات القحط، وفي السنوات القاحلة بعد ان حرمت من مراعيها الخصبة قرب الخزعلي، وبئر بن حمد، و(ريضان) القرن او بقية سهول بئر السبع الواسعة لقد هلكت، أو أصابها اليهود، إلا في القليل النادر، وفقد البدو معها أهم مورد (للإدام) اللبن والسمن، ولم يجدوا مكانها بديلاً، وبين الحين والحين تذبح شاة لضيف كبير فتقسم كبدها ومرقها على المصابين (بالعشى) أو عمى الليل، ليتكحلوا، ويشربوا المرقة، ويشترك المخيم جميعه في هذه الوليمة، أطفاله ونساؤه و(المحليّ)- المضيف - منشرح الصدر، رضي النفس، والدعوات تتصاعد من الحضور (الله يخلف عليه، خلف النيل على البلاد المحيلة، وإن شاء الله في المزارع... والله يكسر الظلمة أولاد الحرام)!!

ذلك ما انتهى إليه العيش بين قومنا من العزازمة وغيرهم من أمثالهم من القبائل الأخرى وليخمن القارىء مدى ما يمنح مثل هذا القوت من حصانة ضد الأمراض، وقوة لمواجهة أعباء الحياة الشاقة التي تعرض لها هؤلاء طوال السنين الماضية.

لقد انتشر السِّلّ انتشاراً ما أظن أن واحداً منهم قد أفلت من فتك جراثيمه، لقد كان السعال في كل مخيم تتجاوب أصداؤه في

الأودية ، في أواخر الليالي الباردة ، وكان الناس يعيشون أبداً في خوف من الهجوم الطارىء ، لقد كنت تسمع الرجل ينهي في غيظ يخالطه الرعب أولاده وزوجه عن (السعال) ويقول: (الواحد يكحّ في صدره) ، وذلك لكي لا يخرج الصوت بعيداً فيسمعه طوارق الليل أو عيون (الهاغناة) وتصور معي عائلة مصابة ، يلقي الواحد من أبنائها برأسه داخل جيبه ، أو يغطي نفسه بما يكتم أنفاسه في ذلك الخلاء الموحش . . . !

ولكن اذا تمكن الداء من ضحيته ، وانفجر (يكح) بدون انقطاع مرة واحدة ، أصبح كل من في الحي يتمنى الخلاص منه ، ولن تمضي ليلة أو ليلتان إلا وهم يترحمون عليه ، في مقرّه الأخير في المقبرة القريبة ـ إذا وجدت ـ أو بعد أن يهدموا عليه جرفاً في حنايا الأودية في أغلب الأحيان!

لقد أحاطت الأمراض بمن لم يحط به اليهود ، وكانت أشد فتكاً دون أن تثير ضجة ، بل أكاد أجزم أن البدو كانوا يرون فيها راحة لأولئك المعذبين ، وأن الله يرسلها إليهم رحمة من المشقة في هذه الحياة الدنيا الفانية!

أما العلم وطلبه ، وهذه النهضة العلمية التي رأينا ثمراتها بين اللاجئين أنفسهم ، فقد كانت بعيدة عن هؤلاء ولا يعلمون عنها أو يصلهم من خيرها قليل أو كثير.

لقد كان قضاء بئر السبع قبل النكبة قد أقبل أبناؤه على العلم ، وكان أبناء العشائر يملأون المدرسة الداخلية في مدرسة بئر السبع ، مثلما يملأون الكتاتيب المتفرقة بين القبائل ، غير أن هذه الشريحة منهم

قد رد أبناؤها عن التعليم رداً عنيفاً، وانقطع عنهم ذلك المنهل، وفرض عليهم التجهيل فرضاً، ولقد أقبل أبناء العزازمة على المدرسة التي أسسها الإخوان المسلمون بالقصيمة، إقبالاً منقطع النظير، ولكن المدرسة أغلقت وتفرق مدرسوها، وانتهت مواردها بمجرد حل الجماعة، وعاد أولئك الأطفال إلى آبائهم يشكون الجهل والفراغ، ويتطلعون الى المستقبل بعيون مليئة باليأس والشقاء!

قد يوحي الكلام الذي سردناه آنفاً أن الجزء الكبير الذي توجه من البدو الى منطقة عوجا حفير، ومن بعدها إلى القصيمة وإلى خراشة ثم الى قديس، قد ظل متماسكاً في مكانه ثابتاً في مقاومته، والواقع ان الزمن قد فعل فعله في نفوس الكثيرين، وانه قد دفع باليأس على فترات متواصلة إلى قلوب عدد ليس بالقليل من الرجال الذين تبعثروا في الجنوب، فعلى طوال الأيام التي مرت على الناس في ذلك الضيق والحرمان، كانت الطرق التي تؤدي إلى الأردن مشغولة بروادها، وعلى مدار الشهور والأعوام كانت تبرز بين رجال القبائل اللاجئة وجوه جديدة أو تلقي قوات الأمن أيديها على متسللين جدد، وفي النهاية تنضم إلى قوائم المحرومين من رفد وكالة الغوث أسماء جديدة كذلك!

لقد تقلصت كتل الناس في خراشة، وقديس، وفي القصيمة ذاتها ولم يبق بين أفرادها، إلا من صمد لهجمات اليهود وغدرهم، أو قاوم جراثيم الأمراض، أو أنه لم يمسك بعصا الترحال، ويلقي بعيداً بعصا القتال في جبال (خراشة) وأوديتها!

فقد جاء عام ١٩٥٦ على العزازمة ولم يبق منهم في القصيمة وقديس وخراشة إلا بقايا محدودة من العشائر، لا تزيد عن بضعة

آلاف ، ولم تكن الأخبار التي تتسرب عن قومهم الذين تجمعوا مع الزمن في الأردن مشجعة ، لأنهم لم ينضموا الى قوافل اللاجئين ، ويمنحوا المساعدات والامتيازات البسيطة التي تقدم لهم ، عن السنوات التي لم تترك فرصة للارتزاق والعيش . ومن يختلط بأولئك الناس في ربيع عام ١٩٥٦ يرى عجباً في ذلك الجو البائس لأنه يرى نماذج من نفسيات عالية ، قد كبرت آمالها في العودة والانتصار ، وكانوا يرثون في أعماق نفوسهم لأولئك الذين لجؤوا من قومهم في البلاد العربية ، ويحسون بعزة وفخر ان ظلوا في مكانهم ، وصار هم الواحد منهم أن يسجل نصراً جديداً ، أو يشترك في غارة حتى يذكر له حين يجتمع الشمل ، ويصفى الحساب ، ويجد كل كفاء عمله من خير وشر!

ذلك كله عمل الدعاية من اذاعات القاهرة على الخصوص التي جعلت تدمير الظلم في فلسطين قد آن أوانه ، في ذلك الظرف من الزمان ، وكانت الأخبار تأتي لأولئك الناس متأخرة ومضخمة في آن واحد ، وكانت أنباء تحركات الجيوش في سيناء تشد ظهرهم وتقوي إيمانهم كما ان الاتفاقات العربية آنذاك قد ساهمت كلها في تضخيم أمل البدو في العودة الى أراضيهم ومزارعهم الغالية ، على ركائز الدعاية السرابية ، والمظاهر الوهمية لوحدة الصف والقيادة المشتركة!

نعم ، لقد استمعت طويلاً لمحدثي ، يروي مظاهر تلك اللحظات السحرية ، التي عاشوها ليقف بانكسار وحرقة وألم ، حين يصل إلى النهاية . . . إلى بداية الطامة الكبرى ، والطوفان الذي أحاط بهم من جميع الجهات بعد ذلك!

كان الخريف قد أقبل بعواصفه وغباره وجفافه ، وكان الرجال

(السارحون) كما يسمي البدو غزاتهم، يأتون بأخبار من المنطقة المغصوبة مقلقة حقاً، كانوا يتحدثون عن تمرينات وفرق ودبابات وجيوش تتجمع من حول بئر السبع، وفي عسلوج، ويقولون: اليهود (في شغل). وكانت فرصة الرجال في صيد الأعداء، ولكن العدوّ لا يلقي إليهم بالاً وحتى انه لا يطاردهم كالعادة، لقد كان مشغولاً بشيء أكبر، شيء خطير جداً، ولكن سيناء ـ كما يقول البدو ـ مملوءة بالجيوش العربية، والحمد لله، لا خوف، ولأول مرة تمر عليهم الطائرات، لا تضربهم ولا تطاردهم، لقد كان ذلك في نظرهم شيء عجيب يثير الدهشة والتساؤل، ولكن الزمن لم يبقهم طويلاً في حالة الدهشة والتساؤل، فبعد أيام قليلة فقط انكشف المخبوء، وأعطت الحوادث تفسيرها في أواخر تشرين أول من ذلك العام المشؤوم!

لقد تحركت قوات العدو في شبه مناورات تدريبية في ثلاثة اتجاهات: الأول إلى الغرب، ولم يكن ذلك يهم البدو كثيراً، والثاني إلى الجنوب تماماً، والثالث الى الجنوب الغربي، وهذا ما كان يرقبه القومة بحذر وريبة ورهبة في آن واحد.

وقد تمركزت قوات الاتجاه الأول في منتصف الطريق بين بئر السبع وخان يونس حول وادي الفارعة، بقرب المستعمرات التي أسست في جوار مركز بوليس (العمارة) السابق.

وأما صلب القوة الثانية فقد اختفت بين الجبال إلى الجنوب من (كرنب)، ومن ثَمَّ فقد البدو أثرها إلى أن برزت فجأة بعد ذلك بأسبوع!

أما القوة الثالثة فقد تحركت من بئر السبع إلى عسلوج، ومن

بعدها إلى قاعة (أبو روثة)، في المزارع شرقي عوجا حفير، وكان البدو يراقبون من بعيد (العجاج) الأبيض تثيره الدبابات والسيارات، تنعقد في السماء ظلة من الغمام، لا تمزقها الرياح إلا وقد ارتفعت غمامة أخرى مع دوي يشبه الرعد، ولمعان زجاج مع انعكاس الشمس في مثل البروق!

وقال الرجال الذين يرقبون هذه القوة من بعيد: (هجوم والله يا إخوان!) الله ينصر إخواننا الله ينصر المسلمين.. لقد وضح الآن أمام البدو أنه هجوم، ولكنهم لا يستطيعون مع هذا الهجوم شيئاً، بل ولا يعرفون أن لهم في مواجهته دوراً معيناً، لقد كانوا فقط يطلقون الدعوات تتصاعد من قلوبهم بنصر إخوانهم العرب، وكانت آمالهم كلها تتركز في أن يستجيب الله لهذه الدعوات..

كان البدو يستمطرون (وسم) (الثريا) في أواخر أكتوبر، وكانت ليالي (سموم) حارة جداً، لا يكاد الواحد منهم يرفع رأسه عن إبريق الماء، وكان البدو قد جربوا أن مثل هذا الحر يسبق دائماً الموسم الماطر المبارك. في تلك الليلة من يوم ٢٩ (تشرين أول) وكانوا على نار من القلق والانتظار، في تلك الليلة انفجرت أول قنبلة إلى الغرب منهم، ثم بدأوا يشاهدون من بعيد لمعان انفجار القنابل في كل مكان من المنطقة العربية التي تحيط بها أنظارهم من على مشارف خراشة و(قديس) وجبل عزيز.

وتناثرت شظايا المعركة ووصلت إلى الجبال طلائع الهاربين من القصيمة من ضيوفها ومن سكانها، وكان يوم من أيام لا تنسى، كان الأطفال يموتون عطشاً في الطريق كالعصافير، وكان همّ الرجال في (قديس) توفير الماء لا أكثر ولا أقل، في ذلك اليوم البالغ الحرارة،

وكأنما كانت الطبيعة تشارك في التنكيل بأولئك البؤساء.

وتناقل الناس الفارون أنباء انسحاب القوات المصرية، وتقدم القوات اليهودية في أسى وحرقة، وقال البعض: إنهم يستدرجونهم في المضائق إلى الغرب ليقضوا عليهم القضاء الأخير، وتجرأ المغامرون منهم إلى استطلاع العوجا، وبيرين والقصيمة، فلم يجدوا فيها قوات تذكر، وجاءتهم أنباء قوات العدو تخرم سيناء من الوسط على (الكنتلة) والثمد، ثم (نخل)، في وسط شبه الجزيرة، ومضى اليوم الأول، ومضى اليوم الثاني، دون أن ترجع قوات العدو مهزومة، وخفت مع تقدم الساعات والدقائق والثواني بوارق الأمل، وبدأت الفاجعة تطل عليهم من سيناء بأنياب صفراء مرعبة، وأخذ كل واحد من الرجال يستعرض ما يمكن أن يحدث لو انتصر العدو، وكيف يمكن أن تكون نهايتهم، وأخذ الجميع يستذكرون كل ما حدث بينهم وبين اليهود في المعركة الطويلة التي شاغلوا العدو فيها سنوات، وتجمع الكبار والصغار وأرسلوا إلى سكان خراشة، وانتظروا الغائب وتفقدوا المريض وجلسوا في (حنية) في جبل قديس، ليتناصحوا ويقرروا ما يمكن أن يسيروا عليه في هذه الظروف القاسية، قبل أن يغرقهم جميعاً الموج!

لقد كان هم الرجال أولاً وقبل كل شيء أن يعرفوا نتيجة المعركة، ويستطلعوا المكاسب والمخاسر في الحرب، وكان واضحاً أنهم سيفقدون بهزيمة العربي في سيناء (الملجأ) الذي يمكن أن ينتهوا إليه، أو أن يسلموا عنده، ولو من الناحية النفسية، وكان واضحاً كذلك أن هزيمة الجيوش العربية هي هزيمة لهم، وأنهم لا يستطيعون العيش في منطقة يحيط بهم العدو فيها من كل جانب، وثار النقاش

طويلاً بينهم، وتباينت وجهات النظر، ولكن الرأي بين الأغلبية قد استقر على رأي واحد لا خيار لهم فيه ولا مندوحة لهم من اتباعه.

* * *

وقال قائل منهم: كيف ترون الرجوع إلى اليهود، والاتصال بالذين سلّموا لهم؟ «وما دام الموت يتربص بنا وبعائلاتنا هنا، أليس من الأفضل أن نستبق الحوادث ونسلم للعدو، ولعله أن يكون قد غير سياسته طبقاً لشروط الهدنة وتوصيات هيئة الأمم التي يتحدثون عنها، فاذا كان غير ذلك فالموت واحد عنده، أو في (نوابي) خراشة».

وقال آخر: «كيف يجوز أن نأخذ بهذا الرأي، وقد جربنا اليهود وجربونا، لو كانوا يريدوننا أن نبقى في أرضنا، أو قريباً منهم، ألم يكن في استطاعتهم أن يفعلوا ذلك؟ ألم يدفعوننا منها دفعاً ويطاردوننا بلا رحمة ولا شفقة؟ وكيف يمكن أن نرجع الآن للعدو بعد الذي صار بيننا؟ لا والله لا نسلم له، ولا يمسك منا إلا الرمم والأشلاء».

وقال أكبرهم سناً: (يا قوم، لا . . هذه ساعات لا يجوز فيها الخلاف والتناحر، ولا يستطيع أحد أن يحكم أحداً على طريق لا يريده . . ، طريق (أبو معمر)[1] معروفة، لا يحتاج واحد منكم دليلاً للوصول إليه، ومن يحب القعود هنا فليس لأحد أن يمنعه، ليستقبل أمواج الأعداء في هذا المحيط الذي امتد نفوذهم إليه حتى وصل قنال السويس) أما أنا فإني راحل مع العجوز و (الفاطر) ـ أي (الناقة) ـ إلى الشرق، لقد حلمت البارحة أن النصر سيأتينا من

(١) شيخ الذين سلّموا لإسرائيل

الشرق. . . !!»

ورد عليه آخر: «النصر من الله يا سلامة، وأنت تقدر ترحل على (الفاطر)، فما رأيك في الذي لا يملك راحلة، ولا يستطيع أن يتحرك بصغاره ومرضاه.» قال الشيخ: «الجمل للقاصر والمريض، والله سنحملهم كما تحمل الكلاب جراءها، لا تخف يا عودة، ما تضيق غير تفرج، ربك يمهل ولا يهمل. . !!»

ووقف الشيخ والرجال على حالهم من الذهول والحيرة، وانطلق من بعيد نداء أخذ يعلو، وظهرت في السفح المقابل امرأة تلوح بقناعها «جاي يا أولاد الحلال جاي. . !!» واندفع الرجال إلى العوالي ومنافذ الهجوم وانطلق اثنان للمرأة يستطلعان خبرها. . !

لم يشم البدو رائحة هجوم مباغت، والنار ما زالت مشتعلة إلى الغرب وعلى السواحل، واليهود في شغل عنهم الآن، ومع ذلك فهذه المرأة تطلب النجدة فما الذي حدث؟ وبعد لحظات من الانتظار على نار من الخوف القاتل، وصلت المرأة وما كادت مع الرجلين، بنظرات زائغة وشفاه يعلوها زبد أبيض وقيل (هذي سلمية. .) وين سويلم؟ وما عليه رديه إن شاء الله. . . !!

فانفجرت المرأة تبكي في نواح يمزق القلوب (سويلم . . راح يا عرب، طاح في أيدي الكفار، سويلم. . سويلم. . !!)

المرأة زوجة سويلم بن سعد أحد رؤوس السراحين وعقلائهم، وكان لا يرى أن حرب اليهود مجدية، وكان يقول: إذا لم تعاونا دولة كيف نصمد إلى هذا الجيش، ومع ذلك فهو لم يفارق قومه ولم يكف عن نصحهم. قالت المرأة: «لقد نزل عندنا عياد هذا

الصباح مع زوجته، وكنا نجهز للرحيل عندكم، ولكن الجمل نزل مع الوادي للرعي، فذهب سويلم وعياد للتفتيش عليه، وغابا بعض الوقت، فسمعنا طلقات (توماتيك) فوقفت على المشراف فرأيت سيارتين تحتنا، ورأيت زوجي توضع القيود في يديه ورجليه، فتركت ولدي عند الرحل وها أنا عندكم .. سويلم يا نشاما، مين اللي يسلمه من يد الظالم.. وكان واضحاً أن احداً لا يستطيع إنقاذه من يد الظالم.. لقد انتهى سويلم، ومن المنتظر أن يلحق به كل الموجودين بين ساعة وأخرى، ولكن عياد وزوجة عياد ياسلمية؟؟.

وانتفضت المرأة كأنما تذكرت مصيبة أخرى قالت (والله يا رجال ما أدري، ما شفت شيء ولكن امرأته بقيت ترقب عودته!!

قال واحد من الجميع: لقد كان سويلم يحب مهادنة اليهود، ولعلَّه قد ذاق الآن طعم التسليم لهم، ولكن عياد يا للفجيعة فيك يا عقيد الرجال!!)

ووقف ثلاثة من الشبان: اثنان من عشيرة الصبحيين، وواحد من عشيرة السراحين، يخاطبون قومهم، «جهزوا أنفسكم، واحملوا رحالكم وموعدنا الراس، راس خراشة»، وانطلقوا بعد ذلك نحو منزل سويلم، ليس مع الواحد منهم إلا بندقية و (قربة) صغيرة تتسع لإبريق من الماء، انطلقوا لا تسمع لخطاهم صوت، إلا حركة الماء في القرب الصغيرة على ظهورهم.

لم يكن للقوم خَيار فيما فعلوا، فسيناء لا يزال غبار الدبابات يظلل سماءها، واختفى رأي التسليم لليهود في صدور أصحابه مع قصة (سلمية)، ونهاية سويلم، وغيبة عياد، فاندفعوا إلى بيوتهم في

سرعة لا يجمعون إلا الضروري جدّاً الذي يستطيعون حمله، لقد تركوا بيوت الشعر الثقيلة نسبياً التي استطاعوا جرها إلى هذه البقعة، وتركوا (الرحايا) اليدوية، وما شابهها من ضرورياتهم. وأخذوا يكدسون أشياءهم على ظهور الجمال.. وكانت قليلة وهزيلة إلا ما كان منها ركائب للفدائيين، لأنهم كانوا يعلفونها، ويعتنون بها أكثر من عنايتهم بأنفسهم، ومن قدر له أن يقف على ذلك الرحيل، أو يتصور الظعن، لا بد ويمتلىء سخرية وأسفاً، من مزاعم اليهود وقرارات الأمم المتحدة، ومطالعات وكالة الغوث، حين تتفق كلها لتجعل رحيل هؤلاء الناس هذا رحيلاً من أجل المرعى يتساوى فيه الهدف، سواء أكان في فلسطين أو في أية بقعة أخرى!

فما هي هذه الأنعام التي كانت عند أولئك الرجال لينتجعوا بها جبال الشراة في الأردن وليتحركوا بها عبر المرتفعات والوهاد الوعرة في رحلة تتقطع فيها الأنفاس !؟

لقد تحرك الجمع إلى الشرق يجرون أنفسهم جراً، تشترك العائلتان في راحلة واحدة، ويتعاون الجميع دون تمييز في حمل حاجاتهم، وأنت تراهم يتصايحون وقت الرحيل، (هاتوا كيس فلان)، «أنا عندي مكان زوادة فلانة».. جملي (عظيم) يحمل ملء ظهره!!

أما الحمير، فكانت في الأغلب تحمل الماء وكانت تسوقها النسوة اللواتي يحملن بدورهن الغزل وزاد السفر..!!

لقد حاولت أن أستطلع بنفسي عدد الجمال، والأغنام والحمير التي كان يملكها من لقيت من القوم عند رحيلهم، فوجدت أنهم

يملكون تقريباً جملاً واحداً لكل عشرة أشخاص، ورأساً من الماعز لكل أربعة، أما الحمير فلا تكاد نسبتها تذكر، وتقل هذه النسبة بين عشائر الصبحيين والمحمديين، إلى حد الجمل الواحد للعشرين، ولكنها تزيد بين عشيرة السراحين. بهذه الحصيلة من الأنعام تدعي إسرائيل، أن مثل العزازمة يتحركون وراء المرعى، ولا مكان للرعاة عندها، وتوافق الأمم المتحدة على مزاعم اسرائيل، وتقبض وكالة الغوث يدها عن معونة ضحايا واحدة من أقسى فواجع المأساة الفلسطينية في هذه المرحلة من مراحل تطورها.

ويمضي القوم في قافلة طويلة ـ كأنها لا تنتهي ـ حين ينضم إليها كلما تقدمت ظعن جديد من بين رؤوس الجبال، وقد أشرفت الشمس على المغيب، وانطلق من الشمال الغربي نسيم عليل، كأنما لم يمر على جحيم الحرب الدائرة هناك، وبدت جبال سيناء واضحة كالجمال الهائلة الباركة، والرجال وهم على وشك الخروج من جبل خراشة يتلفتون إلى رجالهم الثلاثة الذين ذهبوا يستطلعون أخبار العدو، ومصير عياد وزوجته، وإذا بهم يصعدون مع السفح يسوقون غنم سويلم بن سعد وراحلته في عجلة ملحوظة ومعهم ظعن آخر.

قال مصلح ـ أحدهم ـ : «اطلبوا العوض من الله في عياد وزوجته كذلك وانجوا برؤوسكم أيها الناس، اليهود يزحفون عليكم زحف الجراد، لا يتركون وعراً إلا وسهلوه، ولا طريقاً جبلياً إلا وسعوه، إنهم قادمون اليكم بما لا قبل لكم به، توسعوا بعيداً يا عزازمة إذا نجاكم الله هذه المرة!!»

وعرف الرجال بقية قصة مصلح وصاحبيه، فقد وجدوا ابن سويلم على مكانه عند غنم أهله، وتفرق الثلاثة في حذر

وهبطوا الى الشمال يستروحون الأخيار، والتقوا صدفة بظعن مسرع إلى الجنوب، وعرفوا من قريبهم أنه رأى بعينيه المصائب التي حلت بسويلم وعيَّاد، وقال الرجل: «إنها داورية فقط، أما الجيش الكبير فإنه يتحرك في بطء من الشمال، إنني أجزم أن لا غرض له إلا هؤلاء الذين لم يسلّموا ومضى الرجل في حديثه عن هذه القوة: (إنها تتحرك في بطء شديد ومعها جرافات تسهل الطرق، ومعها (حمالات) ماء، ومعها خيام تعسكر فيها كل ما سارت أميالاً قليلة.... ومعهم الخوارط والأدلاء من البدو المسلّمين أنفسهم.. يا إخوان كان الله في عون عباده سمعنا أنهم شقوا بلاد الترابين في العجرة، وأنهم (فظعوا) في رفح وغزة.. يا لَثارات الرجال..»!!

وتبادل القوم النظرات.. وما أكبر رجال البدو عند الإحساس بالخطر إنهم يتبادلون النكات، وإنهم يتصرفون في أناة ويتكلمون بهدوء، كأنما تحسب عليهم كلماتهم، ومظاهر سلوكهم، لقد رأيتهم في أكثر من مناسبة في أشد لحظات الخطر، لا ترتجف أيديهم، ولا يرتبكون، ولا يتلعثمون في الكلام، وكان قومنا يتبادلون النظرات ويقلبون الرأي على وجوهه، ويرسمون طريق الهروب، وحفظ النساء والأطفال، وهم يسيرون مع قافلتهم، والنساء لا يدرين شيئاً مما يدور، وكذلك عدد ليس بقليل من الرجال الذين شغل أكثرهم الحمل الذي (مال) عن ظهر الجمل، أو الوعاء الذي وقع، أو المريض الذي يؤشر بيديه على فمه (شربة من ماء..)!!

وقال أحدهم: «لا بد لنا من المسير هذه الليلة، إننا لا نستطيع أن نكمن إلا في (طوال النفخ) أو (طوال الملاحي) من هناك، نستطيع أن نتفرق، وأن نحدد طريقنا، ونستطيع كذلك أن نرى

تحركات العدو، في نفس الوقت الذي ترتاح فيه الدواب..)

ونادى منادي القوم: «الى (طوال النفخ)»، وساق الرجال رواحلهم في ظلام الليل، يتعثرون ويسقطون في الصخور، ولكنهم ماضون إلى الأمام يتحسسون طريق النجاة، مندفعين في عنف بعوامل الخوف والتشبث بالحياة.

وتحرك الجميع يلهثون وهم يتطلعون إلى الجبال الشرقية من وراء وادي عربة، يتنسمون رائحة الأمن والحياة، إلى أن أخذت القوافل المتهالكة تصل تباعاً، وفي آخر رمق الى مراكز الحدود في الأردن حيث استقبلهم رجالها بكل ما تحت أيديهم من غذاء وكساء ليتحولّوا بعد ذلك إلى قضية من قضايا الأمم المتحدة، واستطاع المنافحون عنهم الحصول على قرار آخر من قراراتها من أجلهم، وأفاق هؤلاء اللاجئون على واقع جديد من مراحل حياتهم.

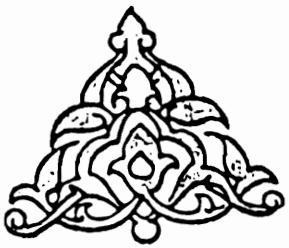

خاتمـــــة

ها أنا ـ يا بني ـ أخط الكلمات الأخيرة، في هذه الذكريات، أو على الأصح، أفصِّل القماط لهذه المخلوقات التي ما خرجت ـ رغم تطاول الأيام ـ عن مرحلة الخداج[1]، ولقد قدم عمك محرر مجلة «الأفق الجديد» الأستاذ أمين شنار فاتحة هذه الذكريات قبل عقدين من السنين بهذه الكلمات «هذه رسالة من لاجىء إلى ولده، أذاب فيها تجربته وصهر جراحه، فكانت عصارة الأسى ووصية الكفاح، إنها جسر الآلام يربط جيل النكبة بجيل الثأر، وستتوالى الرسالة فصولاً، وهذا هو فصلها الأول...!»

ولقد كنت فعلاً مشحوناً بالحماس للمضيّ في هذه الرسائل، لقد كنت أنوي أن أرسم لك صوراً مما حدث قبل الرحيل، أروي لك طرفاً من استجابة الأطفال الفطرية لمقاومة جنود الانتداب البريطاني، التي مهدت للعدوان الصهيوني، أروي لك نبأ أول برقية بعثت بها مع مجموعة من الأطفال إلى المندوب السامي، مع الحكايات المرعبة لكلاب الأثر التي كنا نضللها بذر الفلفل «الشطّة» المطحون، على مواقع أقدامنا، ونحن نقطِّع أسلاك أعمدة الهاتف، وكيف كانت القنابل المهملة من مخلفات الحرب العالمية الأولى تجمع من بين الردم أو النفايات، ويحاول المناضلون استعمالها من جديد... كنت أنوي أن أحكي لك نماذج من معاركنا البسيطة والتلقائية، التي كانت تجري في أحيان

---

(١) الخداج: النقصان، يقال: خدجت الناقة: إذا ألقت ولدها قبل أوانه.

كثيرة في ميدان التنافس بين القبائل، بملاحقة جنود «البالماخ» في المستوطنات التي تناثرت في جنوب فلسطين، أروي ذلك مع قصة أول تنظيم لشباب القبائل في بئر السبع، صاحبة التاريخ الطويل في الصراع فيما بينها، واسمه «جبهة شباب بئر السبع» ولقد كانت لهذه الجبهة سيارة شحن صفحتها بالأسمنت، قبل أن تغنم مصفحة صالحة من اليهود، فما تكاد تلك السيارة تتحرك إلاّ بصعوبة، ثم المعارك التي خاضها أولئك الشباب، قبل أن تدخل الجيوش العربية وتأخذ منا مسؤولية المواجهة مع المعتدين. ثم الخروج القهري من الدور والمزارع، والخيام التي نصبتها جمعيات الإغاثة الدولية قبل أن نستقر، وقرار العودة والتعويض يهدهد النفوس والبيوت وراءنا مازالت فارغة لم يملأها الغزاة بعد!

وقصة ابن عشيرتي سليمان الدبعي ماتزال حية في ذاكرتي كنت أحب أن أرويها لك، كيف أخذ بثأر ابنه الشهيد أضعافاً مضاعفة، ثم كيف انتهى إلى السجن العربي، وأحكي لك طرفاً من سيرة عيّاد وسلاّم، قصة التسلل والمتسللين، حكايات أولئك الأصحاب الذين قضوا وهم يزرعون الألغام في الطرق، أو يتربصون بالأعداء في مضايق الدروب وحنايا الأودية، وقبل هذا كله، كنت أنوي أن اقصّ عليك قصة الإضراب الشامل عام ١٩٣٦، والبطولات التي أفرزها... لقد عشت هذا الإضراب يافعاً، مثلما عشت الهزائم والنكسات والكوارث شاباً وكهلاً، عشت أيام صبرا وشاتيلا، ولقيت طفلاً من بقايا مخيم تل الزعتر، الذي مسح من شرق بيروت مسحاً، هذا الطفل الذي تقول تقارير الأمم المتحدة: إنه أذكى طفل في العالم، لأنه وهو في السابعة يقوم في التجارة والمعاملات مقام الرجال، ... وامتد ذراع الصهيونية حتى بلغ الفلسطيني في تونس الخضراء، والاستنفار الآن يعلن حيث يتجمع الأبناء الذين نفوا بعيداً إلى الخرطوم وصنعاء، لأن آلة الحرب الصهيونية

تستطيع أن تلاحقهم هناك، وربما في أي بقعة من بقاع الأرض... لأن العدوّ لن يستطعم الراحة والاطمئنان، مادام للحق السليب جندي واحد يطالب، أو يتحدث عن الثأر... أو تحرير فلسطين!

وتطاول الزمن - يا بنيّ - وامتدت أمواج السراب، وأمواج الظلام من حولنا ظلمات بعضها فوق بعض، وعندما بدأت أكتب هذه الذكريات، كانت حركة الخيال عندي بلا نهاية، كنت أتطلّع بأناة ورويّة إلى ذلك الجزء من خريطة العالم، المصبوغ باللون الأخضر، والممتد من المحيط الأطلسي، إلى وسط وجنوب شرق آسيا، وأحلم بهذا الموطن العربي الإسلامي واحداً نمشي فيه بين القارات والمحيطات، وكنت أتخيّل أجناد الفتح من فوق السدود والحدود تتجمع من حول نقطة الخطر التي تهدد هذا العالم العربي الإسلامي كله، ولكن صقيع الواقع البارد، يردني إلى الحقيقة الفاجعة، التي تقلّص معها هذا الجزء الهائل من الخارطة، بالتجربة والممارسة، ليحشر في هوية أو جواز سفر..!!

عندما بدأت في تسجيل هذه الذكريات كانت اسرائيل مازالت عندنا «مزعومة»، وأنا أختمها اليوم، ونحن نتوجه بالاستنكار والاحتجاج الشديد، لهذا «التعنّت» الإسرائيلي، الذي تذهب معه إلى عدم الاعتراف بمنظمة التحرير، لقد تحوّل «الزعم» من عندهم إلى الوجود العربي في فلسطين جملة وتفصيلا... في هذه المرحلة أحسست بالخدر والوهن يتسرب إلى أطرافي، وهذا الحديث الشريف يدور مع حركة الخيال عندي: «توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأَكَلَةُ إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذِفَنَّ الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»!

أحسّ وأنا أختم بهذه الكلمات وأنا أتابع أنباء المقاومة في جنوب لبنان والمناطق المحتلة كلها بلون من ألوان الرضا، أن حركة الحياة تتسرب في هذا الموات المطبق، وأن شواهد نفي «الوهن» تتوارد بهذه الفدائية الانتحارية من أبناء وبنات هذا الجيل، والتي بدأت فرادى... ولكن زخمها ينبىء عن ارهاصات التطور إلى الجماعات، والأفواج، التي تتحرك في مثل تدفق السيل، لتعيد مصداقية مقالة خالد إلى دنيا اليوم من جديد: «جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»!

وأحسّ كذلك بهذا اللون من ألوان الرضا والاطمئنان أن هذا الذي قدمته لك سيشكل «عينة» مما حدث، يكفي للإدراك والمعرفة، وتكوين الانطباع الذي أريده لك، عن هذه التركة التي نخلفها بأثقالها ومسؤولياتها، ولا خيار لكم في النهوض بهذه الأثقال والمسؤوليات إن كنتم تعتزون بالانتماء لهذه الأمة وعقيدتها وتاريخ أمجادها الطويل...

والبقية تأتي بإذن الله، إذا بقي في الجهد والعمر بقية ومعذرة لك ولجيلك، ولكل الأجيال..!

أبوك
جمعة حماد

صدر للمؤلف

- العرب واليهود في ساحة الصراع
- بدوي في أوروبا
- اشارات على طريق العمل الإسلامي

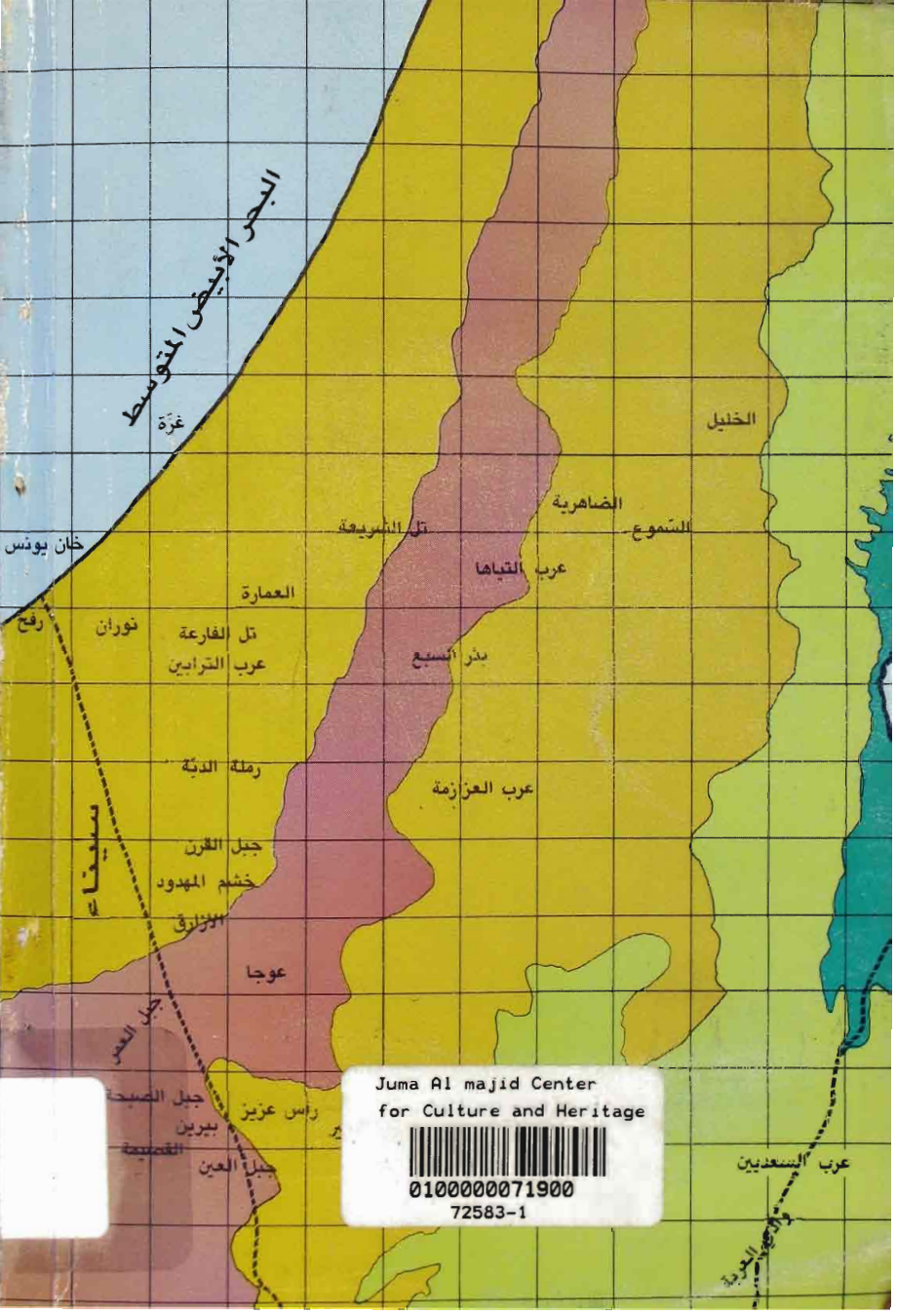

Juma Al majid Center
for Culture and Heritage
0100000071900
72583-1